

روايات
مصرية
للجيب
٢
فارس الأندلس
الأميرة الأسيرة
نبيل فاروق
Abo Badr

من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضي والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١ ــ زائر الفجـر ..

تسلَّلت أضواء الشفق الخافتة من المشرق ، لتزيح جزءًا من أستار الليل الساكن ، من خلف تلال (غرناطة) الخضراء ، وربَّتت فى حنوّ على غيمة صغيرة ، تسبح فى سماء (الأندلس) ، قبل أن تحتضن السماء بذراعين مضيئتين ، معلنة مولد شمس يوم جديد ، من أيام العرب فى (الأندلس) ..

ومن بعيد بدا وقع حوافر جواد يقترب ..

جواد عربى أشهب قوى ، ازدان بسرج فضى ، يستقرّ فوقه فارس ملثّم ، يقبض على عنان الجواد بيد حديدية ، ويلكزه بكعبيه ، فى مزيج مدهش من الرفق والحزم ، جعل الجواد يخضع له ، ويستجيب لندائه الصامت بالإسراع نحو هدف لاح فى الأفق ..

نحو معسكر (فارس) ..

(فارس الأندلس) ..

وعلى الرغم من صمته ولثامه ، كانت عينا الفارس تشيان بنبل المحتد ، وبشىء غير قليل من القلق والتوتر ، يسرى فى نفسه ، ويجرى فى عروقه مجرى الدم ..

ولم يكد ذلك الفارس يلمح المعسكر ، حتى زاد من سرعة لكزه لباطن جواده ، مستحثًا إياه على الإسراع ، فانطلق الجواد العربى الأصيل ينهب الأرض نحو الهدف ، إلى أن تجاوز سوار الأشجار العالية ، المحيط بخيام المعسكر الثلاث ، فانخفضت سرعته ، وتوقَّف ممتثلًا لجذبة عِنان من فارسه ، وراح يضرب الأرض بحافريه الأماميين فى رفق ، فى حين تنهَّد الفارس على متنه ، وغمغم فى خفوت شديد :

ـ أتعشَّم أن يكون من أبحث عنه هنا .

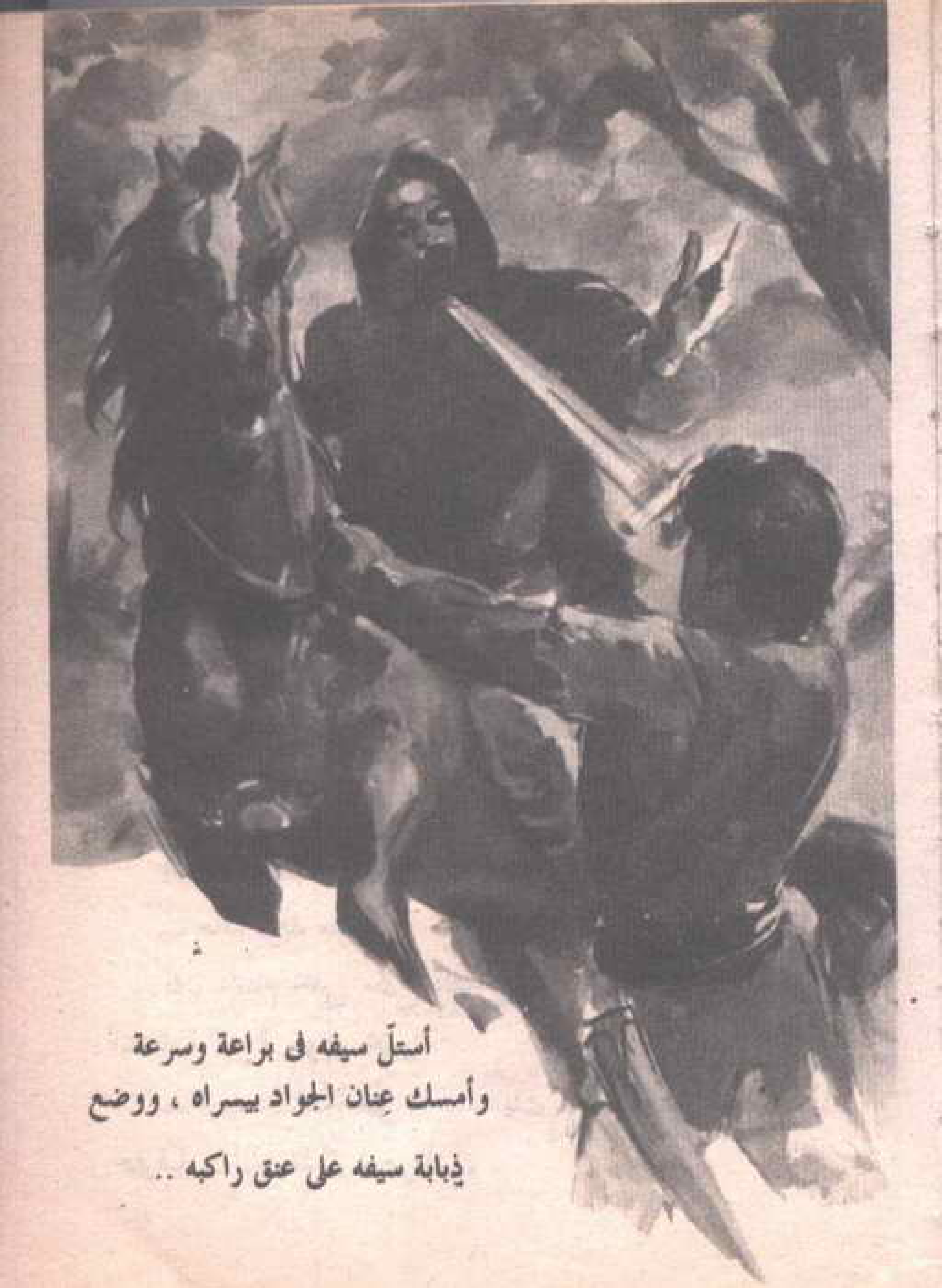
انبعث من فوقه صوت صارم ، يقول :

ـ هذا يتوقَّف على طبيعة من تبحث عنه .

وفى لمح البصر ، وقبل أن يتحرَّك الفارس ، هبط من فوق الشجرة التى تجاوره شاب قوى ، مفتول الساعدين ، عريض المنكبين ، وسيم الملامح ، لم تكد قدماه تستقران أرضًا ، إلى جوار الحصان وصاحبه ، حتى استلَّ سيفه فى براعة وسرعة ، وأمسك عِنان الجواد بيسراه ، ووضع ذبابة سيفه على عنق راكبه ، مستطردًا فى حزم :

ـ ويتوقَّف أيضًا على جواب سؤال حاسم .. من أنت ؟

على الرغم من المفاجأة وعنف الاستقبال ..



أستلّ سيفه فى براعة وسرعة
وأمسك عِنان الجواد بيسراه ، ووضع
ذُبابة سيفه على عنق راكبه ..

وعلى الرغم من صهيل الجواد ، الذى بوغت بذلك الذى انقضّ عليه من السماء ، فرفع قائمتيه ، وضرب بهما الهواء لحظة ، إلا أنّ راكبه لم يبد دهشةً أو ذعرًا ، وإنما تألّقت عيناه ببريق اهتمام ونشوة ، وهو يلتفت إلى الشاب ، ويسأله فى هدوء :

ـ أأنت (فارس) ؟

لم يرق هذا لـ (فارس) ، الذى يفضّل عادة الحصول على جواب لسؤاله ، فقال فى غلظة صارمة :

ـ سألتك أوّلًا من أنت ؟

تجاهل الفارس ذلك السؤال للمرة الثانية ، وهو يقول بلهجة حملت نبرة آمرة ، توحى بأن صاحبها قد اعتاد إلقاء الأوامر طيلة عمره :

ـ أين الشيخ ؟

ضاعف هذا من ضيق (فارس) ، فقال فى حدة :

ـ ماذا تريد منه ؟

كان اللثام يخفى ملامح الفارس تمامًا ، إلا أن عينيه حملتا ابتسامة كبيرة ، وهو يجيب :

ـ أريد أن أهنئه على ما صنعه بك ؛ فلقد جعل منك فارسًا حقيقيًا .. إنك تذكّرنى بوالدك

لقد طرق الفارس ذلك الناقوس ، الذى يلهب (فارس) دائمًا .

والده ..

ذلك الوالد ، الذى يجهل عنه (فارس) كل شىء تقريبًا ، إلا أنه يشبهه ..

وبكل لهفته ، سأله (فارس) :

ـ هل عرفت أبى ؟

أجابه الفارس فى اقتضاب ، لايخلو من نبرة إعجاب واحترام :

ـ كان فارسًا عظيمًا .

هتف (فارس) :

ـ من هو ؟.. من كان ؟.. ما اسمه ؟

بدا لحظة أن الفارس سيجيب ، إلا أنه لم يلبث أن قال فى حزم :

ـ سل الشيخ .

انعقد حاجبا (فارس) فى غضب ، وقال فى حدة :

ـ ستجيبنى أنت ، أو يغوص سيفى هذا فى ..

قاطعته صيحة هادرة :

ـ (فارس) !!

لم يكد (فارس) يسمع صوت أستاذه ومعلّمه الشيخ ، حتى تراجع سيفه على الفور ، وحملت ملامحه كل الاحترام والإجلال والهيبة ، وهو يلتفت إلى الشيخ ، الذى برز أمام خيمته ، مستطردًا :

ـ ويحك يا (فارس) .. ماذا تفعل بضيفنا ؟

برز (مهاب) أيضًا من خيمته فى نفس اللحظة ، و(فارس) يجيب فى احترام :

ـ لقد تسلّل إلى المعسكر ياعمّاه ، و.....

قاطعه الشيخ فى حزم :

ـ اخفض سيفك أوّلا ياولدى .

خفض (فارس) سيفه ، وأداره فى الهواء فى براعة ، ثم أعاده إلى غمده فى حركة سريعة ، وابتعد قليلًا عن جواد الفارس ، فى حين اقترب الشيخ فى وقار من الفارس وجواده ، وقال فى احترام :

ـ تفضّل ، على الرحب والسعة .

هبط الفارس من على صهوة جواده ، واعتدلت قامته فى اعتداد ، واتجه فى خطوات واثقة إلى خيمة الشيخ ، وتبعه الشيخ فى هدوء ، ثم أسدل أستار خيمته خلفه ، فمطّ (فارس) شفتيه ، وتمتم :

ـ هذا الأمر لا يروق لى .

ابتسم (مهاب) ، وسأله :

ـ لماذا ؟

هزَّ (فارس) كتفيه ، وأجاب فى ضيق :

ـ يحنقنى أن كل شىء هنا يحاط بالغموض ، فأنتم تخفون عنى حقيقة منشئى ، واسم والدى ، وحقيقة ذلك الزنجى (فهد) ، الذى يظهر ويختفى دون سابق إنذار ، ويبدو كما لو كان ملاكًا حارسًا ، وأخيرًا ذلك الزائر الغامض .

قال (مهاب) فى حزم :

ـ لا تشغل عقلك بهذا .

هتف (فارس) محنقًا :

ـ كيف ؟

ودون أن ينتظر جوابًا من (مهاب) ، صديقه ومدرِّبه ، اتجه إلى جواده الأبيض (رفيق) ، ووثب على متنه ، دون سرج أو عنان كالمعتاد ، وجذب معرفته فى حزم ، فرفع (رفيق) قائمتيه الأماميتين ، وأطلق صهيلًا يشفّ عن قوته وجذله ، ثم انطلق براكبه وسط الأشجار ، ولم ينس أن يتجه أوَّلًا نحو جعبة السهام ، التى التقطها (فارس) مع قوسه فى براعة ، ثم غاب الاثنان وسط ربوع (غرناطة) فتنهَّد (مهاب) وقال :

ــ ليتك تعلم !

ثم ألقى نظرة على خيمة الشيخ ، وانهمك بعدها فى إعداد سيفه وثيابه ..

أما بالنسبة للفارس الملثم ، فلم يكد يلج خيمة الشيخ ، حتى أزال لثامه فى حركة هادئة ، وهو يسأل :

ــ هل تعرّفتنى ؟

انحنى الشيخ نصف انحناءة ، وهو يقول :

ــ ومن ذا الذى يجهل مولاى الملك .

ابتسم الملك لحظة ، ثم لم يلبث أن استعاد تجهّمه وقلقه ، وهو يقول :

ــ يبدو أننى أحتاج إلى فارسك أيها الوزير .

أجابه الشيخ فى وقار :

ــ هو رهن إشارتك يا مولاى .

أومأ الملك برأسه مقدّرًا ومتفهّمًا ، وتمتم :

ــ أنا واثق من هذا .

ثم تنهّد ، وشبك أصابع كفيه خلف ظهره ، وسأل الشيخ :

ــ ألن تسألنى لماذا أحتاج إليه ؟

قال الشيخ فى هدوء :

ـ لاريب أنه أمر يخصّ (الأندلس) .

أومأ الملك برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ ويخصّنى أيضًا .

ثم أشاح بوجهه ، واتجه نحو فرجة أستار الخيمة ، وتطلّع منها إلى الخارج لحظات فى صمت ، قبل أن يقول :

ـ لقد اختطفوا (جميلة) .

ارتفع حاجبا الشيخ ، وهو يقول :

ـ الأميرة (جميلة) ؟!.. أتقصد ابنتك ؟

أومأ الملك برأسه إيجابًا ، وقال فى حزن :

ـ نعم .. أقصد ابنتى الأميرة (جميلة) .. ذلك الملاك الرقيق ، الذى يملأ حياتى بهجة .

والتفت إلى الشيخ ، وقد التمع الدمع فى عينيه ، واستطرد فى غضب :

ـ اختطفها القشتاليون الأوغاد ..

تمتم الشيخ :

ـ ولكن لماذا ؟

مسح الملك دمعة مريرة ، قبل أن تخدعه فتنزلق من بين جفنيه ، وتهدر معها وقاره الملكى ، ثم لوّح بكفه ، قائلًا :

ـ خدعة أخرى دنيئة من (فرناندو) و(إيزابيلا) .. لقد اختطفا ابنتى الرقيقة ، التى لم تتجاوز عامها الثامن عشر بعد ، فى بهيم الليل ، ونقلاها إلى قصرهما فى (قرطبة) ، وتركا لى رسالة ، يطالباننى فيها بتسليمهما (غرناطة) ، أو يذبحان (جميلة) بلا رحمة .

بدا الغضب على وجه الشيخ ، وهو يقول :

ـ يا للحقارة !

تابع الملك فى مرارة :

ـ أنت تعلم أننى لن أخون (الأندلس) أبدًا ، ولن يذكر التاريخ عنى أننى كنت أحد أسباب هزيمة العرب فيها ، بل سأسعى بكل جهدى وعرق وقواى ؛ لمنع حدوث هذه الهزيمة .

سأله الشيخ :

ـ وماذا عن ابنتك ؟

ارتسم الحزن على وجه الملك ، وقال :

ـ إنها أسيرة الآن فى (قرطبة) ، بين يدى (فرناندو) و(إيزابيلا) ، ملكى (قشتالة) ، وهما لن يرحماها أبدًا ، وأصدقك القول إننا لا نملك القوة الكافية الآن للهجوم على

(قرطبة) ، وإنقاذ (جميلة) بالقوة ، وإرسال كوكبة من الفرسان سيؤدى إلى النتيجة نفسها ، ولايمكننى التخلى عن ابنتى فى سهولة ، فهذا يمزّق نياط قلبى .

رفع وجهه بغتة ، وأضاف :

ــ لقد درست كل الاحتمالات ، ولم أجد أمامى سوى فرصة واحدة لاستعادة ابنتى الأسيرة ، و.....

لم يكمل ، ولكن الشيخ أدرك مقصده ، فاعتدل بدوره ، وردَّد فى حزم :

ــ (فارس) .

وأومأ الملك برأسه إيجابا ..

* * *

انطلق (فارس) فى ربوع (غرناطة) ، والحنق يعصف بنفسه ..

كان الغموض المحيط به يخنقه بالفعل ..

لقد نشأ فى هذا المخيم ، منذ وعت عيناه الدنيا ..

نشأ بين يدى معلِّمه الشيخ ، الذى راح يبثه العلوم والحكمة ، ويعلِّمه قواعد دينه ودنياه ، ويتحدَّث إليه بلسان الأعاجم ، حتى صنع منه ماهو عليه الآن ..

وفى الوقت نفسه كان (مهاب) يدرِّبه على فنون الفروسية والقتال ..

وها هو ذا الآن فارس ..

فارس يجهل من هو ..

إلى من ينتمى !!..

إنه لم ينس ولن ينسى أبدًا ذلك اليوم ، عندما أعطاه الشيخ تلك الحلة البيضاء والخوذة الفضية ، والنطاق والغمد والسيف ، بألوانها الخضراء ..

يومها أدرك أن ما يعدّ له طيلة عمره قد بدأ ..

وأن لحظة مولد الفارس قد حانت ..

(فارس الأندلس) ..

انتزعه من أفكاره مرأى ذلك الغزال ، الذى جفل لرؤيته ، فانطلق يعدو مبتعدًا ، ولكن (فارس) تشبَّث بمعرَفة جواده ، وهتف به :

ـــ انطلق يا (رفيق) .

انطلق الجواد العربى القوى خلف الغزال ، وتخلّى (فارس) عن المعرفة ، وأمسك قوسه بيسراه ، ودفع قاعدة السهم فى وتره بيمناه ، وجذب الوتر ..

وأطلق السهم ..

إنه لايحتاج عادة إلا لسهم واحد ..

هكذا درَّبه (مهاب) ..

وفى بساطة ، حمل صيده ، وعاد به إلى المعسكر ، وفى اللحظة التى بلغه فيها ، كان الملك يغادره على صهوة جواده ، وكان (مهاب) يرتدى ثيابه كلها ، فهبط (فارس) عن جواده ، وحمل الغزال على كتفه ، وهو يقول :

ـــ لماذا رحل الضيف الملثَمَ مبكّرًا ؟.. كان ينبغى أن يتناول طعام الإفطار معنا أوّلًا .

أجابه (مهاب) ، وهو يحمل سرجًا :

ـــ للضرورة أحكام .

ثم ألقى السرج على ظهر (رفيق) ، وراح يربط أحزمته حول بطن الجواد فى قوة ، فهتف (فارس) معترضًا :

ـــ ماذا تفعل ؟.. لم يعتد (رفيق) تلك الأثقال .

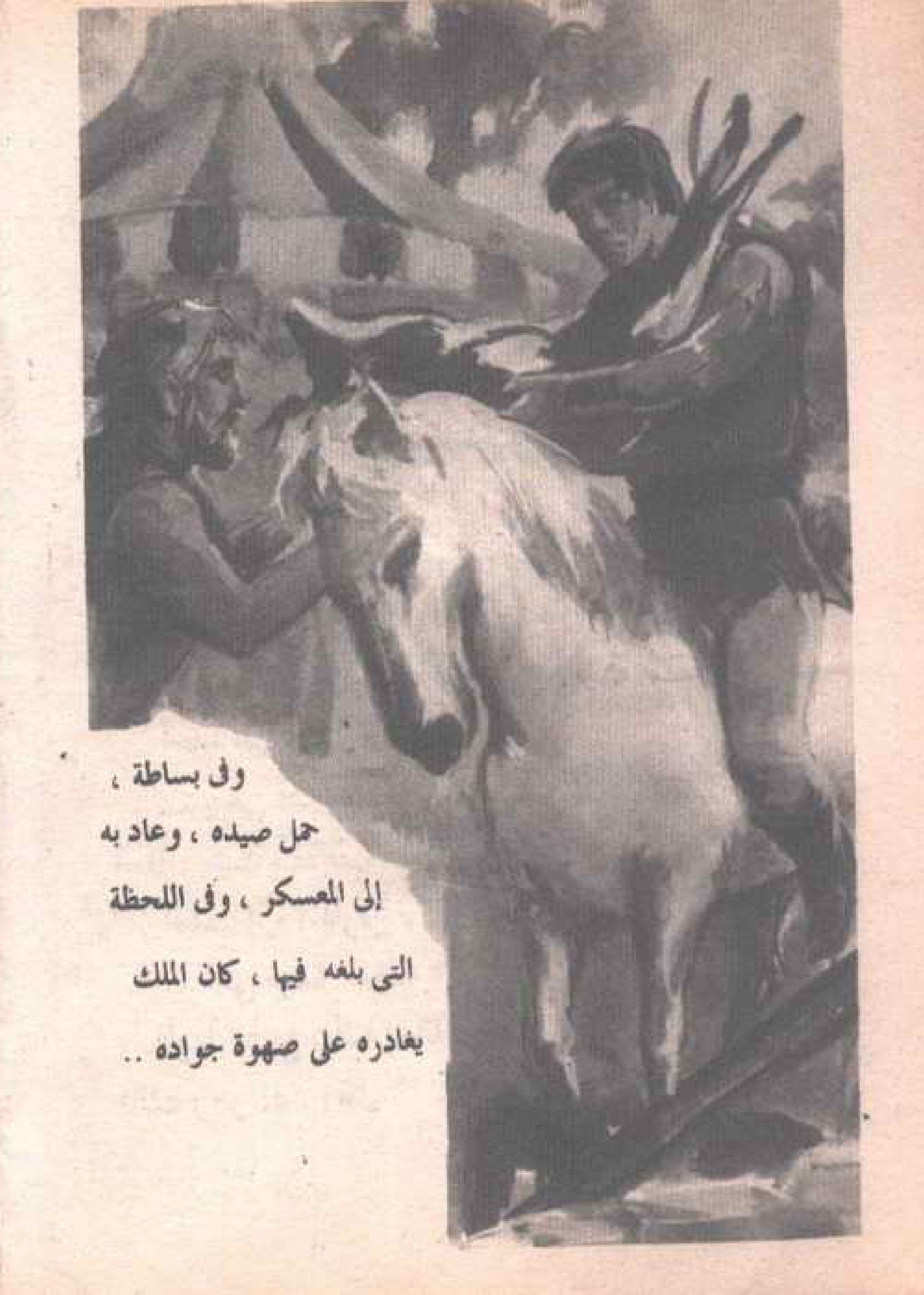
أجابه الشيخ فى حزم :

ـــ ينبغى أن يعتادها ، فليس من المستحب أن يتعرَّفك أحد ، حيث ستذهب هذه المرة .

التفت إليه (فارس) ، وسأله :

ـــ أهى مهمة جديدة ؟

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا ، فأشار (فارس) إلى حيث يبتعد الملك وجواده ، وقال :



وفى بساطة ،
حمل صيده ، وعاد به
إلى المعسكر ، وفى اللحظة
التى بلغه فيها ، كان الملك
يغادره على صهوة جواده ..

ـــ أهو صاحبها ؟

أجابه الشيخ فى حزم :

ـــ إنها مهمة من أجل (الأندلس) .

صمت الجميع لحظة ، ثم سأل (فارس) :

ـــ أين ؟

أجاب الشيخ فى حسم :

ـــ فى القلب هذه المرة ياولدى .. فى قلب الأعداء ..

وكانت هذه هى البداية ..

* * *



٢ ـ قرطبة ..

أطلق (فرناندو الخامس) ضحكة مجلجلة ، ولوَّح بكأس الشراب فى يده ، وهو يلتفت إلى الملكة (إيزابيلا) ، قائلًا :

ـ فلنشرب نخب نجاح الجزء الأوَّل من خطتنا .

أجابته فى غلظة :

ـ أفضل أن أشرب نخب نجاح الجزء الأخير منها ، ونحن ندخل (غرناطة) .

قهقه ضاحكًا ، وجرع كأسه دفعة واحدة ، وقال :

ـ لن ننتظر هذا طويلًا .

تطلَّعت إليه لحظة ، وسألته :

ـ هل تتوقَّع أن يخضع (ابن الأحمر) لتهديدنا ؟

هزَّ كتفيه ، وقال :

ـ العرب كلهم من ذوى العاطفة الجيَّاشة ، ومن العسير على أحدهم التخلِّى عن ابنته ، حتى ولو كان الثمن هو حياته نفسها .

مطَّت شفتيها ، وغمغمت :

ــ حياته ربّما ، ولكن ليس وطنه .
ابتسم ساخرًا ، وهو يقول :
ــ سنرى .
صبَّ لنفسه كأسًا أخرى ، ثم سألها فى اهتمام :
ــ ولكن أين وصيفتك الفاتنة (غالا) ؟
رمقته بنظرة غاضبة ، وقالت :
ــ هل اشتقت إليها كثيرًا ؟
هزَّ كتفيه ، وقال :
ــ أتشعرين بالغيرة ؟
مطَّت شفتيها قائلة :
ــ بل بالازدراء .
قهقه ضاحكًا ، وألقى محتويات كأسه فى حلقه جرعة واحدة ، وصمت لحظات ، احتقن فيها وجهه ، من أثر جرعة الخمر العنيفة ، قبل أن يسعل لحظة ، ثم يقول فى برود :
ــ ليس هذا حديث ملكة تجلس على عرش (قشتالة) و(ليون) .
قالت محنقة :
ــ وليس هذا أسلوب ملك قشتالى عظيم .. إنك تخوننى مع وصيفتى ، وليس هذا مما يليق بك .

تنهّد وقال فى خفوت :

ــ (غالا) تليق بملك الملوك .

هتفت :

ــ ماذا تقول ؟

لوَّح بكفه ، قائلًا فى حدة :

ــ لاشىء .. كنت فقط أفكّر فى صوت مرتفع .

رَان عليهما صمت مشوب بالكراهية لحظات ، ثم قالت (إيزابيلا) :

ــ لقد كلَّفت (غالا) حراسة الأميرة الغرناطية .

ابتسم قائلًا :

ــ حقًّا !

أجابته فى حدة :

ــ وأمرتها بقتل كل من يقترب من جناح الأميرة الأسيرة .

ابتسم فى سخرية ، فأضافت بلهجة استفزازية :

ــ حتى ولو كان الملك نفسه .

انعقد حاجباه فى غضب ، وقال :

ــ أيتها الـ .....

قطع عبارته اندفاع وصيفه الخاص داخل حجرته ، هاتفًا :

ـ مولاى .
التفت إليه (فرناندو) فى غضب ، وألقى كأسه أرضًا ، وهو يصرخ به :
ـ ماذا تريد يا رجل ؟.. كيف تقتحم جناحى الخاص هكذا ؟
شحب وجه الوصيف ، وهو يقول مرتبكًا :
ـ عفوًا يا مولاى ، ولكننى أحمل خبرًا عاجلًا خطيرًا .
سأله محنقًا :
ـ ما هو ؟.. هات ما لديك .. هيا .
كان من الواضح أن الملك يفرغ جام غضبه فى وجه وصيفه ، الذى تلعثم ، وخفض عينيه ، وتمتم :
ـ هناك غرناطى فى (قرطبة) يا مولاى .
هتف الملك :
ـ غرناطى ؟.. أى غرناطى هذا ؟
هزَّ الوصيف رأسه ، وقال :
ـ لست أدرى يا مولاى .. لقد وصلتنا رسالة من جاسوسنا فى (غرناطة) ، يقول فيها إن فارسًا من فرسانها قد انطلق إلى هنا ؛ لإنقاذ الأميرة (جميلة) من قصرك ، وأنه قد بلغ (قرطبة) بالفعل هذا الصباح .

ازداد انعقاد حاجبي (فرناندو) ، وهو يقول :
– من هو ؟.. كيف يبدو ؟
عاد الوصيف يهزّ رأسه نفيًا ، وقال :
– هذا مالم يعلمه جاسوسنا يامولاى .
خيِّل للوصيف أن أذنيه قد أصيبتا بالصَّمَم ، من ذلك الصمت الرهيب ، الذى ساد المكان ، قبل أن يقول (فرناندو) :
– فارس واحد .
ثم انفجر فجأة مقهقهًا ، وردَّد مرة أخرى :
– فارس واحد ؟!.. يالسخافة هؤلاء العرب .. أتتصوَّرين هذا يا (إيزابيلا) ؟.. فارس واحد لانتزاع الأميرة العربية من قلب حصننا ؟!.. أأصيب هؤلاء العرب بالجنون ، أم أن حماقتهم قد فاقت المدى هذه المرَّة ؟
تمتمت قلقة :
– أو هى ثقتهم الزائدة فى فارسهم .
هتف بها .
– ثقتهم ؟!
ثم التفت إلى وصيفه ، وقال فى حزم :

ـــ أغلقوا أبواب (قرطبة) .. ألقوا القبض على أى غريب يدخلها ، أو دخلها هذا الصباح .. أحكموا الحصار حول القصر .. اعتقلوا كل من تشتبهون فى أمره .

وملأ كأسه ، وجرعها فى سرعة ، قبل أن يستطرد فى صرامة :

ـــ لن يهزمنا العرب أبدًا .. أبدًا ..

* * *

سار (فارس) الهوينى بجواده ، داخل طرقات (قرطبة) ، وراحت عيناه تدوران فى كل ما حوله ، حتى قال (مهاب) ، الذى يسير بجواده إلى جواره :

ـــ إنها أوّل مرة ترى فيها (قرطبة) .. أليس كذلك ؟

أجابه (فارس) :

ـــ بلى ، وأشعر بغصة فى حلقى لرؤيتها .

قال (مهاب) فى دهشة :

ـــ غصة ؟!

أومأ (فارس) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـــ نعم يا صديقى ، أشعر بغصة فى حلقى ؛ لأن كل هذا كان لنا يومًا ، ثم تركناه لهم .

تنهّد (مهاب) وقال :

ــ لم نتركه يا (فارس) .. لقد خسرناه .

قبض (فارس) قبضته فى قوة ، وقال فى مرارة :

ــ وهذا أدعى للحنق .

رَان عليهما الصمت لحظات ، وهما يقطعان طرقات (قرطبة) على صهوة جواديهما ، ثم قال (فارس) :

ــ متى تبلغ حصن (قرطبة) ؟

أجابه (مهاب) :

ــ بعد قليل .. إنه فى نهاية المدينة ، بالقرب من سورها الخلفى .

عادا إلى صمتهما لحظات ، ثم قال (فارس) فى حنق :

ــ اللعنة !

سأله (مهاب) :

ــ ماذا هناك ؟

قال فى حدة :

ــ أشعر بالضيق وأنا أقود (رفيق) بسرج ولجام .. لم أعتد هذا قط .

ضحك (مهاب) وقال :

ـ لن تلبث أن تعتاده .

لم يبد له أن (فارس) يستمع إليه ، فقد انعقد حاجباه ، وراح يتطلّع فى انتباه شديد إلى نقطة بعيدة ، فسأله (مهاب) :

ـ ماذا يقلقك هكذا ؟

تحسّس (فارس) مقبض سيفه ، وهو يجيب :

ـ هناك كوكبة من فرسان القشتاليين تقترب ، وهم يستوقفون المارة ، ويبدو أنهم يبحثون عن شىء ما .. أو شخص ما .

تطلّع (مهاب) إلى حيث يشير (فارس) ، وغمغم متوترًا :

ـ ولكن لا أحد يعلم بوجودنا ، و.....

قاطعه (فارس) فى حزم :

ـ يبدو أنك قد نسيت تعاليم الشيخ ياصديقى ، أما أنا ، فمازالت كلماته تتردّد فى أذنىَّ : « لاتثق فى أى شىء ، فلاتوجد مسلّمات فى ظل صراع .. » .

تمتم (مهاب) فى قلق :

ـ هل تظن أنه من المحتمل أن ؟..

قاطعه (فارس) مرة أخرى :

— ولم لا ؟... ربما قص الملك الأمر على أحد المقربين إليه ، وردَّد هذا الأخير السر أمام زوجته ، التى قصته على مسامع زوجة جاسوس ما ، فنقل هذا الأمر إلى سادته فى (قرطبة) .

قال (مهاب) :

— إنك تمتلك خيالًا خصبًا يا فتى .

ثم أمسك مقبض سيفه بدوره ، مستطردًا :

— ولكن هذا لايمنع الحذر .

اتجهت نحوهم كوكبة الفرسان ، وقوامها ستة من أشدّ فرسان (قشتالة) ، يتمنطق كل منهم بسيفه ، ويقبض على مجنّه(*) ، وأشار أكبرهم إلى (فارس) ، وهو يقول فى حزم :

— أوراقك أيها العربى .

أجابه (فارس) فى هدوء :

— لست أحمل أوراقًا أيها القشتالى .

قال القشتالى فى صرامة :

— سنلقى القبض عليك إذن أيها العربى .

(*) المجنّ : الترس الذى يحمله الفرسان ؛ لصد ضربات خصومهم .

وبصوت كهزيم الرعد ، استلّ الفرسان الستة سيوفهم ، وشهروها فى وجهى (فارس) و(مهاب) ..

واستلّ (فارس) و(مهاب) سيفيهما ، وهتف الأوَّل فى صرامة :

ــ عليكم أن تحاولوا أيها القشتاليون .

وتقارعت السيوف فى قوة ، وصلصلت وجالت ..

وتراجع القشتاليون فى رهبة ..

لقد رأوا أمامهم فارسين من أقوى وأشجع فرسان العرب ..

وهتف قائدهم :

ــ قاتلوا .. ألقوا القبض عليهما .. إنهما المقصودان حتمًا .

ولكن سيف (فارس) أطاح بسيف القشتالى ، وهو يهتف فى حزم :

ــ القول سهل أيها القشتالى .

خلت الطرقات من المارة ، إزاء هذا القتال الرهيب ، وصهلت الجياد ، وقرقعت السيوف ، وسقط أربعة من الفرسان الستة ، وهتف (مهاب) :

ـــ لقد أوقعنا بهم يافتى .. لقد هزمناهم .

ولكن قائد القشتاليين صرخ :

ـــ النجدة يافرسان (قشتالة) !! الغوث !!

ومن نهاية الطريق ، اندفعت كوكبة أخرى من الفرسان ، امتشق كل منهم حسامه ، وراحوا يطلقون صيحات رهيبة ، فهتف (مهاب) :

ـــ يبدو أننى قد تعجَّلت القول يا (فارس) .

صاح به (فارس) ، وهو يقاتل كالليث :

ـــ قاتل يا (مهاب) .. قاتل واصمت .

بلغتهما كوكبة الفرسان الثانية ، وأحاطت بهما ، وراح الاثنان يقاتلان فى استماتة ، وسيفاهما يضربان السيوف فى تواصل مثير ، فتراجعا نحو حائط منزل كبير ، و(مهاب) يقول :

ـــ يبدو أن مهمتنا ستنتهى قبل أن تبدأ يا (فارس) .. الوداع ياصديقى .

مع آخر حروف كلماته ، أطاح اثنان من القشتاليين بسيفه ، وارتفع سيف ثالثهم ، وهو يصرخ :

ـــ مت أيها العربى .. مت .

وهوى سيفه على رأس (مهاب) ..

* * *

٣ ـ أسوار (قرطبة) ..

قطعت (غالا) الفاتنة ذلك الممر الطويل ، الذى يقود إلى حجرة برج الحصن ، وأشارت بيدها فى اعتداد إلى حارسى الحجرة ، فأفسحا لها الطريق فى احترام ، ودفعت هى باب الحجرة الفسيحة ، ودلفت إليها مرفوعة الرأس ، وتطلَّعت لحظة إلى الأميرة (جميلة) ، التى جلست إلى جوار النافذة ، ودموعها تملأ وجهها ، وقالت لها فى برود :

ـ أما زلت تبكين ؟

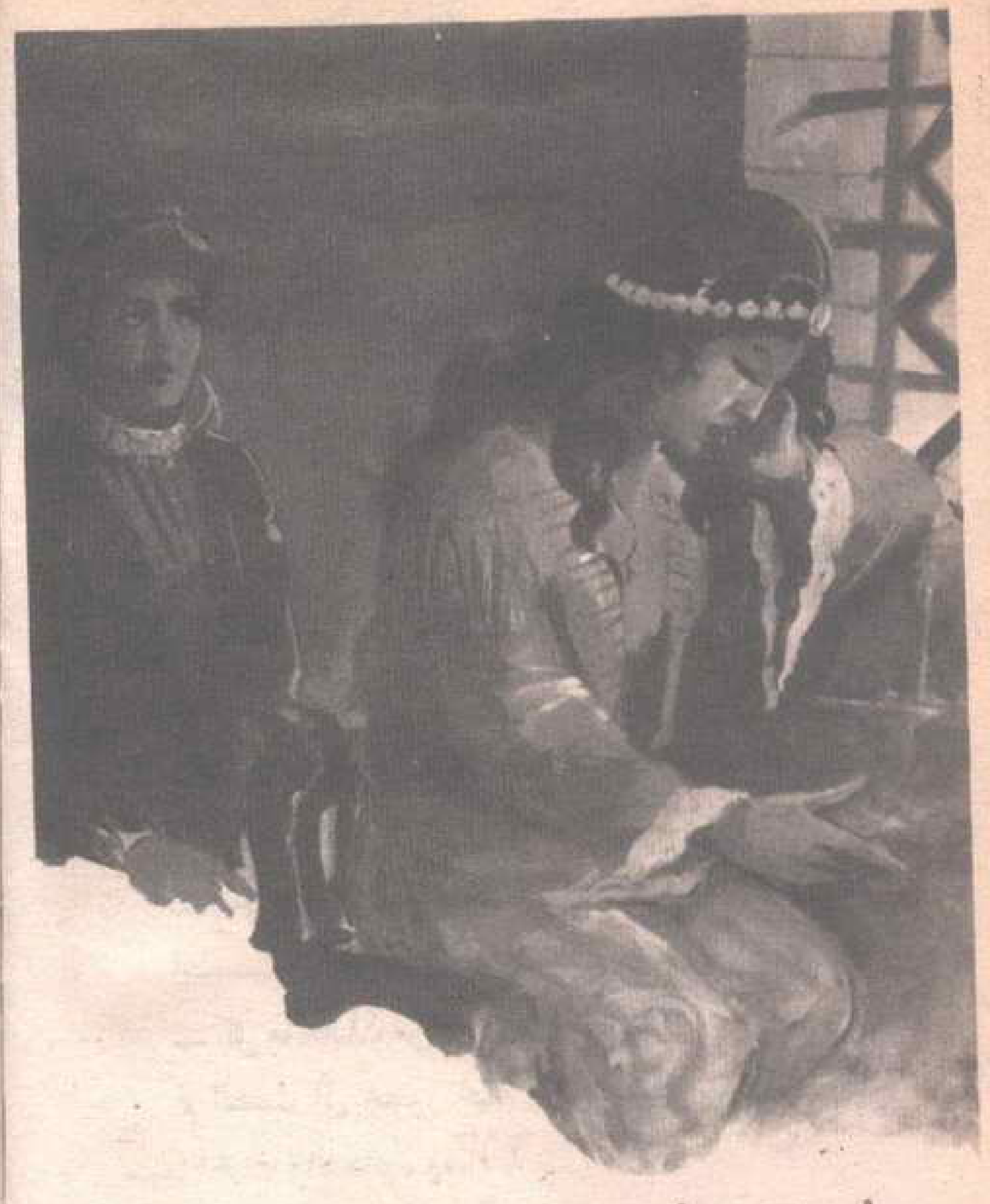
جفَّفت الأميرة دموعها بأناملها الرقيقة ، وقالت فى كبرياء :

ـ ليس هذا من شأنك .

ابتسمت (غالا) فى سخرية ، وقالت :

ـ كل مايخصك من شأنى أيتها العربية .

ثم التفتت إلى عجوز نحيلة ، ذات عينين بارزتين ، يشعّ منهما الخبث والدهاء ، وسألتها :



وتطلعت لحظة إلى الأميرة (جميلة)، التى جلست إلى جوار النافذة ، ودموعها تملأ وجهها ، وقالت لها فى برود : ـــ أمازلت تبكين ؟

— هل تناولت طعامها ؟

هزّت العجوز رأسها نفيًا ، فعقدت (غالا) حاجبيها فى غضب ، وهى تقول للأميرة :

— هل تسعين إلى الانتحار ؟

أجابتها (جميلة) فى حزم :

— كلّا ، فالمنتحر كافر فى ديننا ، ولكننى أفضّل تناول الطعام فى (غرناطة) ، فلن يطول بقائى هنا بإذن الله .

أطلقت (غالا) ضحكة ساخرة ، وقالت :

— أتعنين أن أباك سيخضع لنا ، ويسلّمنا (غرناطة) على طبق من فضة ؟

هتفت (جميلة) :

— مستحيل .. أبى ليس خائنًا .. إنه ملك عربى ، وأنت تجهلين ما يعنيه هذا .

ثم أضافت فى لهجة استفزازية :

— ولكنه سيسعى لإنقاذى من أسرى حتمًا .

ابتسمت (غالا) فى سخرية ، وهى تقول :

— هكذا ؟!

ثم تحوّلت ابتسامتها إلى ضحكة قوية ، وقالت :

ــ ألا تعلمين حقيقة وضعك أيتها العربية ؟؟.. إنك هنا فى قمة البرج الغربى لحصن (قرطبة) ، على ارتفاع ألف ذراع ، عن سطح الأرض ، ويقوم على حراسة هذا البرج عشرة من أقوى رجال الحرس الملكى الخاص ، وهذا يعنى ــ باختصار ــ أن انقاذك من هنا مستحيل .

كانت الأميرة (جميلة) تدرك استحالة إنقاذها بالفعل ، إلا أن كبرياءها العربى جعلها تشمخ بأنفها ، وتقول فى عناد :

ــ سنرى .

ابتسمت (غالا) فى سخرية ، وقالت :

ــ نعم .. سنرى .

وأطلقت ضحكة ساخرة أخرى ..

* * *

الموقف كله كان يشير إلى الخسارة ..

عشرة من الفرسان القشتاليين الأقوياء يحيطون بـ (فارس) و(مهاب) ، وقد فقد (مهاب) سيفه ، و(فارس) يقاتل وحده فى يأس مرير ..

وسيف فارس قشتالى يرتفع فوق رأس (مهاب) ، ويستعد لشجّ جمجمته بلاتردّد ، و....

وفجأة انطلقت تلك الصرخة ..

صرخة رهيبة ، مخيفة ، قوية ، انطلقت كزئير ليث غاضب ، من أعلى المنزل ، الذى يرتكن (فارس) و(مهاب) إلى جداره ..

وارتجف الفرسان ..

وتجمَّد السيف فى يد الفارس ، الذى يهمّ بقتل (مهاب) ..

وارتفعت كل العيون إلى أعلى ..

ووثب الفهد ..

(فهد).. الزنجى المفتول العضلات .. الصامت .. الصنديد ..

(فهد)أطلق الصرخة ، وقفز من فوق المنزل فى صديريته وسرواله الأسودين ، وسيفه يلتمع فى قبضته ، وهبط بين القشتاليين ، الذين تراجعوا فى ذعر من أثر المفاجأة ..

وبصرخة أخرى رهيبة ، ضرب (فهد) بسيفه الصدور والأعناق ..

عاصفة سوداء عاتية أصابت الفرسان ..

موت محقَّق هبط عليهم من السماء ..

وصاح (فارس) :

ــ هاهوذا أخيرًا .. كنت أعلم أنه سيأتى :

وبضربة ماهرة ، أطاح بسيف أحد القشتاليين ، وقفز يلتقط السيف فى الهواء ، ثم ألقاه إلى (مهاب) ، هاتفًا :

ــ هيا يا رجل .. هيا .. لقد انقلبت دفة الأمور ..

وفى هذه المرة ، لم يكن أمام فرسان (قشتالة) سوى التراجع ..

كان أمامهم ثلاثة أسود ، يقاتلون كما لم يقاتل فرسان من قبل ..

ثلاثة من أسود العرب ..

بل .. (فهد) وأسدان ..

وفى مرارة ، وثب قائد القشتاليين على صهوة جواده ، وصاح فى رجاله :

ــ انسحبوا .. أسرعوا .

انطلق رجاله يعدون مبتعدين ، و(مهاب) يصرخ خلفهم :

ــ أسرعوا أكثر أيها الفئران المذعورة .

اختفى القشتاليون فى نهاية الطريق ، ولوَّح (فارس) بسيفه ، ثم أعاده إلى غمده ، وهو يلتفت إلى (فهد) ، هاتفًا :

ــ مرحبًا بك يا رجل .. كنت واثقًا من أنك ستظهر وقت الحاجة إليك ، حتى أننى كنت أتساءل : لماذا لم تظهر حتى الآن ؟

لم ينبس (فهد) ببنت شفة كعادته ، وإنما أعاد سيفه إلى غمده ، وانحنى أمام (فارس) ، ثم اعتدل يشير إلى حيث اختفى القشتاليون ، ولوَّح بسبَّابته ، فقال (مهاب) :

ــ أنت على حق .. إنهم سيعودون .

ثم أمسك كتف (فارس) ، وقال :

ــ هيا .. لابد لنا من أن نبتعد قبل عودتهم .

عقد (فارس) حاجبيه ، وقال فى حدة :

ــ هل نفر كالجبناء ؟

أجابه (مهاب) فى صرامة :

ــ هناك فارق كبير بين الجبن والحماقة .. هيا .

ثم التفت إلى (فهد) ، مستطردًا :

ــ ولكننى أظن أن أوصافنا ستملأ الطرقات ، ويحفظها كل قشتالى عن ظهر قلب ، و.....

أشار إليه (فهد) ، ثم أسرع إلى ما خلف المنزل ، فغمغم (فارس) :

ــ ماذا يعنى ؟

أجابه (مهاب) فى اهتمام :

ــ أظنه سيذهب بنا إلى مكان ما .

ردَّد (فارس) فى دهشة :

ـ مكان ما ؟!

عاد (فهد) فى اللحظة نفسها ، وهو يمتطى جواده الأسود ، وأشار إلى (مهاب)، و(فارس) ، فقفز كل منهم على صهوة جواده ، وتبعاه عبر طرقات معقدة متشابكة ضيقة ، بدا أن (فهد) يعبرها فى ثقة ، جعلت (فارس) يسأل (مهاب) فى دهشة :

ـ كيف يحفظ هذه الطرقات ؟

ابتسم (مهاب) وقال :

ـ لقد وُلِدَ هنا .

رمق (فارس) (فهد) بنظرة حائرة ، وهو يغمغم :

ـ حقًّا ؟!

توقَّف (فهد) أمام منزل قديم ، وهبط عن جواده ، وطرق باب المنزل ثلاث طرقات متباعدة ، ففتح الباب رجل فى منتصف الأربعينات من عمره ، تهلَّلت أساريره وهو يهتف :

ـ (فهد) !!.. مرحبًا بك يا رجل .. كنت أنتظرك .

أشار (فهد) إلى رفيقيه ، فتبعاه إلى داخل المنزل ، وأغلق صاحبه بابه خلفهم فى إحكام ، ثم التفت إلى (مهاب) ، وأمسك كتفيه فى قوة ، وهو يقول فى حرارة :

ـ (مهاب) .. يا إلٰهى !!.. لم أتصوَّر أبدًا أننا سنلتقى مرة أخرى يا رجل .

بدا الانفعال العاطفى على وجه (مهاب) ، وهو يقول :

ـ ولا أنا يا (قاسم) .

أطلق (قاسم) ضحكة تشفَّ عن سعادته ، وربَّت على كتف (مهاب) فى حماس ، وهو يقول :

ـ إنك لم تتغيَّر أبدًا يا قائد الفرسان .. فقط بعض الشعيرات البيضاء فى لحيتك .. كم يذكرنى مرآك بأيام الأمير الـ .....

قاطعه (مهاب) فى سرعة ، وهو يشير إلى (فارس) :

ـ أنسيت رفيقنا ؟

التفت (قاسم) إلى (فارس) ، وشفتاه تحملان ابتسامة ترحاب ، ولكنه لم يكد يتبيَّن ملامح (فارس) حتى سقط فكه ، واتسعت عيناه فى دهشة ، وراح يحدِّق فى هذا الأخير ، على نحو جعل (فارس) يقول فى ضيق :

ـ ماذا بك يا رجل ؟.. تبدو كما لو أنك قد شاهدت شبحًا !

لم يجب (قاسم) ..

ظلّ لحظات يحدّق فى وجه (فارس) فى دهشة ، ثم لم يلبث أن التفت إلى (مهاب) ، وقال بانفعال :

ــ أهو ابنه ؟

أومأ (مهاب) برأسه إيجابًا فى صمت ، فعاد (قاسم) يلتفت إلى (فارس) ، واغرورقت عيناه بدموع خشوع ، وهو يهتف :

ــ مولاى .

انحنى أمام (فارس) فى احترام بالغ ، فعقد (فارس) حاجبيه فى توتر ، وأمسك كتف (قاسم) ، وقال :

ــ قل لى يا رجل : هل تعرف أبى ؟

هتف (قاسم) :

ــ ومن ذا الذى يجهله يا مولاى ؟.. لقد كان (رحمه الله) أعظم أمراء (قرطبة) ..

بل أعظم فرسان (الأندلس) كلها .

انغرست أصابع (فارس) فى كتف (قاسم) ، وارتجف صوته من شدة الانفعال ، وهو يقول :

ــ ما اسمه يا رجل ؟.. من هو ؟.. أخبرنى .

هتف به (مهاب) فى صرامة :

ـ كفى يا (فارس) .

التفت إليه (فارس) فى حدة ، هاتفًا :

ـ لماذا لاتريدون أن أعلم ؟

أجابه فى حزم :

ـ لم يحن الوقت بعد .

ـ ثم استدرك بسرعة ، عندما لمح الغضب فى وجه (فارس) :

ـ إنها أوامر الشيخ :

بدا لحظات أن صراعا عنيفًا يدور فى أعماق (فارس) ، ثم لم تلبث ملامحه أن شفّت عن حسم هذا الصراع ، وهو يقول :

ـ حسنًا .. سأنتظر .

صمت (قاسم) لحظات ، وهو يدير عينيه فى وجوه الجميع ، ثم تنهّد وقال :

ـ لاريب أنكم تشعرون بالجوع .

أجابه (مهاب) :

ـ بالتأكيد .

ابتسم (قاسم) ، وصاح :

ـ أعدّوا الطعام للضيوف .

ثم أشار إلى ركن مظلم ، فبرز منه طفل فى العاشرة ، انحنى (قاسم) نحوه ، وقال فى حزم :

ــ هؤلاء ضيوفنا ياولدى ، وهم عرب مثلنا ، والقشتاليون يبحثون عنهم .. اخرج لمراقبة مايحدث فى الخارج ، وأنذرنا عند شعورك بالخطر .

ــ أجابه الطفل فى هدوء :

ــ كما تأمر ياأبى .

وأسرع يغادر المكان ، فقال (فارس) :

ــ لقد صنعت منه رجلًا قبل الأوان .

ابتسم (قاسم) ، وقال :

ــ فى الحروب يأتى الأوان مبكرًا .

ثم تلاشت ابتسامته ، وحملت ملامحه كل الجديَّة ، وهو يستطرد فى حزم :

ــ والآن سنتناول الطعام ، ثم ندرس الأمر كله .. وبكل التفاصيل .

ــ وكان هذا مايبتغيه (فارس) ..

فى تلك اللحظة على الأقل ..

* * *

اجتاحت موجة هائلة من الغضب الملك (فرناندو) ، وهو يستمع إلى قائد حرسه ، ثم لم يلبث أن هتف :

ــ أى قول أحمق هذا ؟.. كيف يتوصَّل رجالك إلى جواسيس العرب ، ثم يعجزون عن إلقاء القبض عليهم يا (فاسكو) ؟.. كيف يفشل أعظم فرساننا فى الإيقاع بثلاثة من العرب ؟

قال (فاسكو) فى ضيق :

ــ لم يكن الرجال يتوقَّعون هذا ، وأنت تدرك تأثير عامل المفاجأة ، و.....

صرخ فيه (فرناندو) :

ــ هراء .

وعقد كفيه خلف ظهره ، واتجه إلى نافذة جناحه ، وراح يتطلَّع منها لحظات فى صمت ، وكأنما يحاول السيطرة على غضبه وتوتره ، ثم لم يلبث أن التفت إلى (فاسكو) ، وقال فى حزم :

ــ ستكون هذه آخر مرة أغفر فيها أى خطأ لرجالك يا (فاسكو) .. لقد فشلتم هذه المرة فى اقتناص الجواسيس ، ولكنكم ستنجحون فى المرة القادمة ، أو تدفعون ثمن هذا الفشل .

واحتقن وجهه فى انفعال ، وهو يستطرد :

— أريد هؤلاء الجواسيس العرب قبل الفجر .. هل تفهم ؟.. قبل الفجر .

انحنى (فاسكو) أمامه ، وقال :

— كما تأمر يا مولاى .

وانطلق خارجًا لتنفيذ الأمر ..

وصمت (فرناندو) لحظات ، بعد انصراف (فاسكو) ، ثم اندفع نحو جناح الملكة (إيزابيلا) ، واقتحمه على نحو أدهش الملكة ووصيفاتها ، ونهضت (غالا) فى حركة حادة ، هاتفة .

— مولاى ؟!..

بدا الضيق على وجه (إيزابيلا) ، ثم أشارت إلى وصيفاتها بالانصراف ، فأسرعن يغادرن جناحها ، إلا أن الملك استوقف (غالا) ، وسألها :

— كيف حال أسيرتك ؟

ترددت (غالا) لحظة ، وهى تختلس النظر إلى الملكة ، فصاح بها (فرناندو) غاضبًا :

— أجيبى سؤال الملك .

خفضت (غالا) عينيها ، وأجابت :

— مازالت ترفض تناول الطعام يا مولاى .

قال فى حدة :

ـــ فلتذهب إلى الجحيم .

ثم تابع فى غلظة :

ـــ ضاعفى الحراسة حول جناحها ، ومرى الحرّاس بالاستعداد ، لو شعروا أن شخصًا قد ينجح فى بلوغ حجرتها .

سألته فى دهشة :

ـــ الاستعداد لماذا ؟

انعقد حاجباه ، وبدا صارمًا حازمًا ، وهو يقول :

ـــ لقتلها .

* * *

كان الطعام شهيًا طيبًا ، إلا أن (فارس) لم يتناول سوى النذر اليسير ؛ ليحافظ على نشاطه ، ثم جلس الرجال الأربعة فى حجرة كبيرة ، فى نهاية المنزل ، وقال (قاسم) :

ـــ من الواضح أن القشتاليين يدركون حقيقة موقفكم ، وأنكم قد أتيتم لإنقاذ الأميرة ، فهم يمشّطون (قرطبة) بحثًا عنكم ، ويضاعفون الحراسة حول حصنهم ، حيث يحتجزون الأميرة (جميلة) .

سأله (فارس) فى اهتمام :

ـــ هل تعلم بالضبط أين يحتجزونها ؟

أومأ (قاسم) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .. إن لدى جاسوسًا فى الحصن ، ولقد أبلغنى هذا الجاسوس أنهم يحتفظون بالأميرة فى حجرة البرج الغربى ، وأن عشرة من أقوى رجال الحرس الملكى يحيطون بها ، ولا أحد يُسمح له ببلوغ حجرتها سوى عجوز تُدعى (شواهى) ، والوصيفة (غالا) .

سأله (فارس) :

ـ من (غالا) هذه ؟

تبادل (قاسم) نظرة مع (مهاب) ، ثم أجاب :

ـ إنها أجمل أفعى بين صفوف (قشتالة) ، وأكثرهن جمالًا ودهاءً وشراسة .

تجاهل (فارس) هذا الوصف ، وسأله :

ـ ألديك خريطة للقصر ؟

أجابه (قاسم) :

ـ بالطبع .

فى حين غمغم (مهاب) :

ـ إننى أحفظه عن ظهر قلب .

التفت إليه (فارس) فى دهشة ، وهمّ بسؤاله عما يعنيه بهذا ، إلا أن ابن (قاسم) اقتحم الحجرة فى هذه اللحظة ، وهتف :

ــ القشتاليون هنا .. إنهم يحاصرون المنطقة كلهـا ، ويفتشون كل المنازل .

هب الجميع واقفين ، واستلّ (فارس) سيفه ، وهو يقول :

ــ كم عددهم ؟

لم يجب الطفل ، وإنما أدار عينيه إلى والده ، وأجاب فى صوت مرتجف :

ــ لا يوجد أمل هذه المرة يا أبى .. لا أمل .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ارتفعت دقات القشتاليين على باب المنزل ، مؤكّدة نفس الحقيقة ..

لا أمل ..

* * *

٤ ــ الفرسان ..

التقت عيون الجميع فى نظرة تحمل آلاف المعاين ، ثم رفع (فارس) سيفه ، وهو يقول فى حزم :

ــ لا مفرّ إذن من القتال .

أمسك (قاسم) يده ، وقال قلقًا :

ــ قتال من ؟.. ألم تسمع القول ؟.. إنهم يحاصرون المنطقة كلها ، والطرقات هنا ، كما لابد أنك قد لاحظت ، أن طرقاته ضيقة متداخلة ، ومثل هذه الطرقات لا يتأتى فيها ، لثلاثة من الفرسان ، القتال والفرار .. إنهم سيوقعون بكم حتمًا .

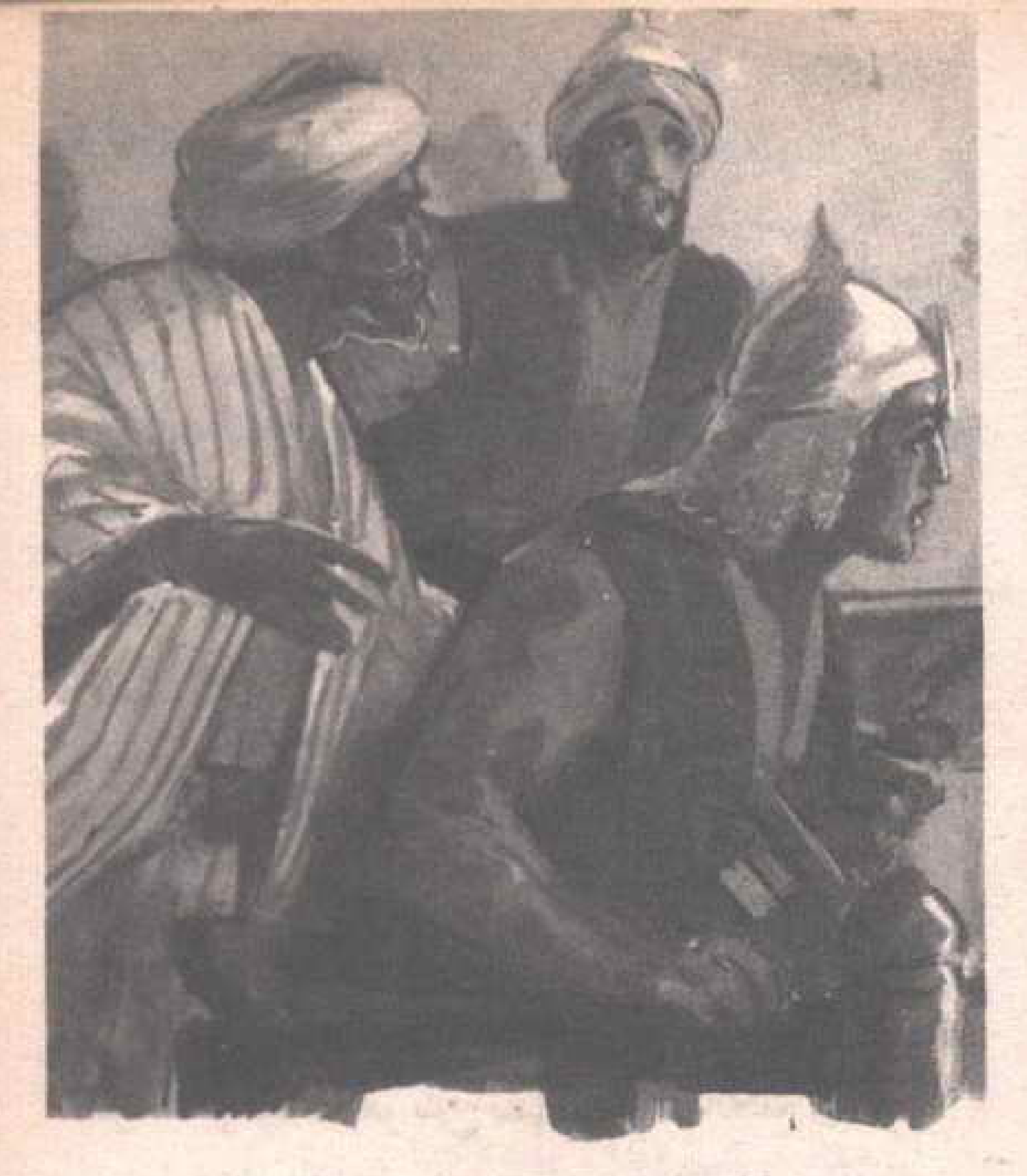
قال (فارس) فى إصرار :

ــ سنقاتل حتى آخر رمق .

لم ينبس (قاسم) ببنت شفة ، وإن شفّت عيناه عن اليأس ، فقال (مهاب) فى حزم :

ــ لا خيار هذه المرة يا رجل ، فالموت ونحن نقاتل أشرف ألف مرة ، من أن يقتلونا هنا ، ولا يوجد حل بديل ، و.....

قطعت عبارته صرخة هائلة ..



قال (فارس) في إصرار :

ــ سنقاتل حتى آخر رمق ..

صرخة ارتجّ لها المكان كله ، وميّز فيها الجميـع صوت (فهد) ..

وهتف (فارس) :

ـ إنه (فهد) ولاشك .. يا إلٰهى !.. كيف لم أنتبه إلى غيابه .

اندفع الثلاثة إلى نافذة المنزل ، حيث ارتفع صليـل السيوف ..

ولكن فاتتهم البداية ..

وكانت بداية رائعة بكل المقاييس ..

كان القشتاليون يطرقون باب منزل (قاسم) ، وسيوفهم مشهورة فى أيديهم ، والتحفّز والشراسة والحذر تطلّ مـن عيونهم ..

ثم برز (فهد) ..

برز من خلف المنزل ، على متن جواده الأسود ، وأطلق صرخته الرهيبة ، وهو يلوّح بسيفه الضخم اللامع فى الهواء ..

واستدار القشتاليون بسيوفهم وأنظارهـم إلى مصدر الصرخة ..

وانطلق (فهد) ..

انطلق كإعصار عاتٍ مدمِّر ..

وقبل أن يرفع القشتاليون سيوفهم ، كان سيف (فهد) يهوى على صدورهم وأعناقهم ، ثم جذب هذا الأخير عنان جواده ، وانطلق به وسطهم ، وهو يلوِّح بسيفه ، ويطلق صرخاته المخيفة ، ثم لم يلبث أن انحرف فى طريق ضيق ، فصرخ قائد القشتاليين فى غضب :

ــ إنه أحدهم .. انطلقوا خلفه .. لاتدعوه يهرب .

قفز القشتاليون على ظهور جيادهم ، وانطلقوا خلف (فهد) ، وسيوفهم تلتمع فى الهواء ..

ومن مخبئه ، شاهد (فارس) ماحدث ، فاستلّ سيفه ، وقال :

ــ لابد أن نلحق بهم .. لن نترك (فهد) وحده .

أمسك (مهاب) بقبضته فى حزم ، وقال :

ــ بل سنبقى ، فلن نضيع محاولته إبعادهم عنا هباءً .

قال (فارس) محتدًا :

ــ وهل نتركهم خلفه وحده هكذا ؟

ربَّت (قاسم) على كتفه ، قائلًا :

ــ لاتقلق بشأن (فهد) ، فمعرفته بالمنطقة وخباياها تكفى لأن يضلوا كلهم الطريق خلفه .

تردّد (فارس) لحظات ، ثم غمغم :

ـــ أتظن هذا حقًّا ؟

ابتسم (قاسم) ، وأجاب فى ثقة :

ـــ بالتأكيد يافتى .

ثم أضاف فى جدية واهتمام :

ـــ المهم الآن هو أن نسعى لإنقاذ الأميرة .

قال (فارس) فى حزم :

ـــ وبسرعة .

ـــ ثم أعاد سيفه إلى غمده ، واستطرد :

ـــ إننى أتذكّر الآن قول الشيخ : « لايُطرق الحديد إلا وهو ساخن » ، وهذا يعنى ضرورة أن نتحرّك فى سرعة ، فما دام أمر مهمتنا قد أصبح معروفًا ، فلا شك أن القشتاليين سيتخذون أهبتهم ؛ لحراسة الأميرة ، وحماية حصنهم ، ومنعنا من محاولة إنقاذها ، واتخاذ هذه الإجراءات يستلزم منهم وقتًا ، والأمل الوحيد فى نجاتنا ونجاحنا ، هو أن نتحرّك أسرع منهم ، وهم لن يتوقعوا هذا حتمًا .

رَان الصمت لحظة ، ثم قال (مهاب) :

ـــ هل تتعجّل إنهاء المهمة ؟

هزَّ (فارس) كتفيه ، وابتسم ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ــ لقد سئمت عدم ارتداء الزى الأبيض ، وامتطاء حصانى بسرج ولجام .

رَان الصمت لحظات أخرى ، تبادل خلالها (قاسم) و(مهاب) نظرة تفوح بالقلق ، قبل أن يتمتم (مهاب) فى خفوت :

ــ وكيف تتصوَّر قيامنا بالعمل ؟

أشار (فارس) إلى رأسه ، وأجاب :

ــ بالحيلة .

سأله فى اهتمام :

ــ ماذا تعنى ؟

ابتسم وأجاب فى ثقة :

ــ سأخبرك .

وبدأ يشرح خطته ..

* * *

أزاحت (غالا) أستار باب حجرة البرج الغربى ، وألقت نظرة طويلة صامتة على الأميرة (جميلة) ، وغمغمت فى صوت خافت :

ـ يا لكبرياء العرب !

وعلى الرغم من أن صوتها كان شديد الخفوت ، فقد التفتت إليها الأميرة ، والتفتت معها العجوز (شواهى) ، وقالت الأميرة فى اعتداد :

ـ هل يقلقك أمر فرارى إلى هذا الحد ، حتى تأتين للاطمئنان على أمرى كل فترة من الزمن ؟

قالت (غالا) فى سخرية :

ـ فرارك ؟!.. لا أيتها العربية ، فرارك لا يقلقنى قط ، فهو أمر غير وارد ، وإنما أتيت لأرى ما سيفعله بك الجوع .

شمخت (جميلة) بأنفها ، ثم أشاحت بوجهها فى كبرياء ، فأضافت (غالا) فى حدة :

ـ فما دمت ترفضين طعامنا ، فسأحرمك منه أنا .

ابتسمت (جميلة) فى استهتار ، قائلة :

ـ وهل يصنع هذا فارقًا ؟

هتفت (غالا) فى غضب :

ـ نعم .. بالنسبة لى على الأقل .

أثارت ابتسامة (جميلة) المزيد من غضبها وحنقها ، فأضافت فى ثورة :

ـ ولتعلمى أن نجاتك من هنا مستحيلة ، فحتى لو شنّ علينا والدك وجنوده هجومًا انتحاريًا رهيبًا ، ونجحوا جدلًا فى بلوغ سجنك ، فلن يجدوك قطعة واحدة .. سيجدون عنقك ورأسك وحدهما ، فى سلة حقيرة ، فى ركن الحجرة .

هزَّت (جميلة) كتفيها ، وقالت :

ـ لن أشعر بالألم لحظتها حتمًا أيتها القشتالية .. أليس كذلك ؟

أطلقت (غالا) زمجرة غاضبة ، وهتفت فى حنق :

ـ سنرى .

واندفعت تغادر المكان كالعاصفة ..

وهنا ..

هنا فقط ، سمحت جميلة لدموعها بالانهمار من عينيها ، وألصقت جبهتها البيضاء بحاجز النافذة ، وهى تتمتم فى صوت شديد الخفوت :

ـ ربَّاه !.. إننى أشعر بخوف هائل .. ساعدنى يا ربى .. ساعدنى يا رب الكون .

وانسالت دموعها الساخنة فى مرارة ..

* * *

كانت الشمس تميل إلى الغروب ، عندما اقترب شاب عربى رث الهيئة ، يركب جوادًا أبيض اللون ، له سرج مهلهل ، ولجام من قماش قديم ، من بوَّابة حصن (قرطبة) ، فرفع حرَّاس البرج رماحهم فى وجهه ، وقال أحدهم فى غلظة :

— قف أيها العربى ، إلى أين تظن نفسك ذاهبًا ؟

أوقف الشاب جواده ، وهبط عن متنه ، وقال مرتبكًا :

— إننى .. إننى أريد مقابلة مولاى الملك (فرناندو) .

ابتسم الحارس فى سخرية ، وقال :

— تقابل الملك ؟.. شخصيًّا ؟!.. من تظن نفسك يا رجل ، حتى تلتقى بملك (قشتالة) ؟

ربَّت الشاب على كومة مثبتة إلى سرج الجواد ، وأجاب :

— لدى ما يهم مولاى الملك به كثيرًا .

قالها بلهجة واثقة حاسمة ، جعلت الحارسين يتبادلان نظرة حائرة ، قبل أن يلين صوت أوَّلهما ، وهو يسأل الشاب :

— وماذا لديك ؟

هزَّ الشاب رأسه فى حزم ، وأجاب :

— لن أخبر سوى الملك نفسه .

قال الحارس فى غضب :

ــ ستخبرنى ، أو أقطع لسانك بسيفى هذا .

لم يبد الخوف على وجه الشاب ، وهو يجيب :

ــ لن يفيدك أن تعلم ما لدى ، فالملك وحده سيدرك مقصدى .

كان الشاب يتحدّث فى لهجة مفعمة بالثقة ، مما أقلق الحارسين ، فمال أحدهما نحو زميله ، وسأله هامسًا :

ــ ما رأيك ؟

أجابه زميله ، وهو يختلس النظر إلى الشاب ، الذى ظلّ هادئًا صامتًا :

ــ لا يمكننا اتخاذ قرار بهذا الشأن ، فقد يكون ما يحمله هذا العربى بالغ الخطورة .

قال الأوّل قلقًا :

ــ ولا يمكننا فى الوقت نفسه أن نسمح له بمقابلة الملك ، وإلا لطار عنقانا ، لو لم يكن لديه أمر يستحق هذا .

شملهما صمت الحيرة لحظات ، ثم هتف أحدهما :

ــ القائد (فاسكو) .

تألّقت عينا الثانى ، وهتف :

ـ نعم .. وحده يمكنه تقييم الأمر .. اسمع أيها العربى ، سيقودك الحراس إلى قائدنا الهمام (فاسكو) ، وهو سيفهم ما لديك .

وافقهما الشاب فى بساطة ، وأمسك عنان جواده ، وقاده خلفه داخل ساحة الحصن الكبيرة ، بحراسة أربعة رجال ، حتى بلغ حجرة (فاسكو) ، ودلف أحد الجنود إلى الحجرة ، وقال لقائده :

ـ هناك عربى يطلب مقابلة مولاى الملك يا سيِّدى .

عقد (فاسكو) حاجبيه ، وهو يقول :

ـ يطلب مقابلة الملك .. أى عربى أخرق هذا ؟

دلف الشاب إلى الحجرة فى نفس اللحظة ، وأجاب :

ـ أنا .

التفت إليه (فاسكو) ، ورمقه بنظرة غاضبة ، وقال فى حدة :

ـ من سمح لك بالدخول ، أيها العربى ؟

أجابه الشاب فى بساطة شديدة :

ـ كان الباب مفتوحًا ، فلم أتصوَّر أن هذا محظور .

بدا الغضب لحظة على وجه (فاسكو) ، إلا أن بساطة الشاب بدت له طبيعية للغاية ، حتى أن ملامحه لم تلبث أن لانت ، وقال :

ـ حسنًا .. ماذا لديك ، مما يستحق مقابلة الملك شخصيًا ؟

أجابه الشاب :

ـ إننى أحمل إليه بعض الثياب ، وسيفًا وخوذة .

حدَّق (فاسكو) فى وجه الشاب بدهشة شديدة ، كما لو كان يحدِّق فى وجه مجنون ، ثم عاد يعقد حاجبيه ، قائلًا فى استنكار :

ـ بعض الثياب وسيف وخوذة ؟!.. أتتصوَّر أن مولانا الملك (فرناندو الخامس) سيلتقى بعربى حقير مثلك ، من أجل هدية تافهة كهذه ؟

ابتسم الشاب وأجاب :

ـ معذرة يا قائد الحرس الملكى ، ولكن يبدو أنه قد حدث سوء فهم غير مقصود ، فليس ما أحمله مجرَّد هدية .. إنه رمز ودليل .

هتف به (فاسكو) :

- رمز ماذا ؟ ودليل ماذا يا رجل ؟.. أفصح ، فلست أميل إلى حديث الغموض هذا .

تردَّد الشاب لحظة ، ثم قال فى حزم :

- عفوًا أيها القائد ، ولكن لا ينبغى أبدًا أن أقص ما لدى ، إلا على مسامع مولاى الملك شخصيًّا ، و.....

صرخ (فاسكو) غاضبًا ، وهو يهبّ من مقعده ، ويستلّ سيفه :

- ويحك أيها العربى !! كيف ترفض طاعة أوامر (فاسكودى مال) ، قائد الحرس الملكى القشتالى ؟!..

تراجع الشاب خطوة ، متحاشيًا ذبابة السيف ، إلا أن وجهه ظلّ خاليًا من آثار الخوف ، وبدا من انفراجة شفتيه أنه يهمّ بقول شىء ما ، لولا أن اندفع وصيف الملك داخل حجرة (فاسكو) ، وقال فى لهفة :

- التحية لقائد الحرس الملكى .

خفض (فاسكو) سيفه ، وعقد حاجبيه ، وهو يرفع عينيه إلى الوصيف ، قائلًا :

- ماذا تريد يا وصيف الملك ؟

نقل الوصيف بصره فى سرعة ، بين (فاسكو) والشاب ، ثم ابتسم ابتسامة عجيبة ، بدت وكأنها تحمل خبث الدنيا كله ، وهو يقول :

ـــ مولاى الملك يطلب إرسال الشاب العربى إليه .

بدا الشاب العربى هادئًا ، وكأنما الأمر لايعنيه ، فى حين اتسعت عينا (فاسكو) فى دهشة أقرب إلى الذهول ، وهو يحدّق فى وجه الوصيف ، قبل أن يتراجع ، وينعقد حاجباه فى غضب شديد ، قائلًا :

ـــ يبدو أن لمولاى الملك شبكة من أنشط الجواسيس ، داخل أسوار الحصن .

اكتفى الوصيف بابتسامته الخبيثة ، دون أن يجيب ، فاستفزّ هذا (فاسكو) ، إلى حد جَعَل صوته يعلو ويحتدّ ، وهو يقول :

ـــ تُرى ماذا كان سيفعل مولانا الملك ، لو أننى فقدت أعصابى ، وقتلت ذلك العربى ، قبل أن تصل أنت إلى هنا ؟

مطّ الوصيف شفتيه ، وهزّ كتفيه فى لامبالاة ، وهو يقول :

ـــ سيكون هذا حكم القدر .

قال (فاسكو) فى غضب :

ـ هكذا ؟!.. قل لمولاك : إن القدر قد سبق مطلبه إذن .

وبسرعة يدفعها الغضب ، استلّ (فاسكو) سيفه من غمده ، وهوى به على عنق الشاب العربى ..

على عنق (فارس) ..

فارس الأندلس ..

* * *



٥ ـ عرين الفئران ..

لم يشكّ وصيف الملك لحظة ، وهو يشاهد هذا الموقف ، فى أن السيف سيجتزّ عنق الشاب العربى من جذره ..

ولكن هذا الشاب لم يكن عربيًا عاديًا ..

لقد كان (فارس) ..

(فارس) ، الذى تلقَّى العلم والفروسية ، منذ تفتَّحت عيناه للدنيا ..

(فارس الأندلس) ..

ولم يكن هذا الموقف رهيبًا بالنسبة لـ (فارس) ، فلقد درَّبه (مهاب) طويلًا على مواقف وأحداث مشابهة ، حتى خلق منه شابًا لا يبالى بالمفاجآت ، أو تهتز شعرة واحدة من جسده لها ..

وبالنسبة لـ (فارس) ، لم يكن ذلك السيف ، الذى يهوى على عنقه ، أكثر من عصا تدريب ، اعتاد (مهاب) مباغتته بها ، دون سابق إنذار ..

وتمامًا كما كان يفعل فى أثناء التدريبات ، انحنى (فارس) فى سرعة مدهشة ، وانثنى جسده فى مرونة فائقة ، ثم تراجع فى خفة ، وقفز إلى الخلف ، وامتدّت يده على نحو غريزى إلى مقبض سيف وهمى ، ثم لم يلبث أن انتبه إلى أنه لايتمنطق بسيفه ، فأعاد يده إلى جوّاره ، ووقف ثابتًا ..

وجنّ جنون (فاسكو) ، عندما أفلت (فارس) من سيفه ، بكل هذه البساطة والرشاقة ، فصرخ :

ــ هل تتحدّانى أيها العربى ؟

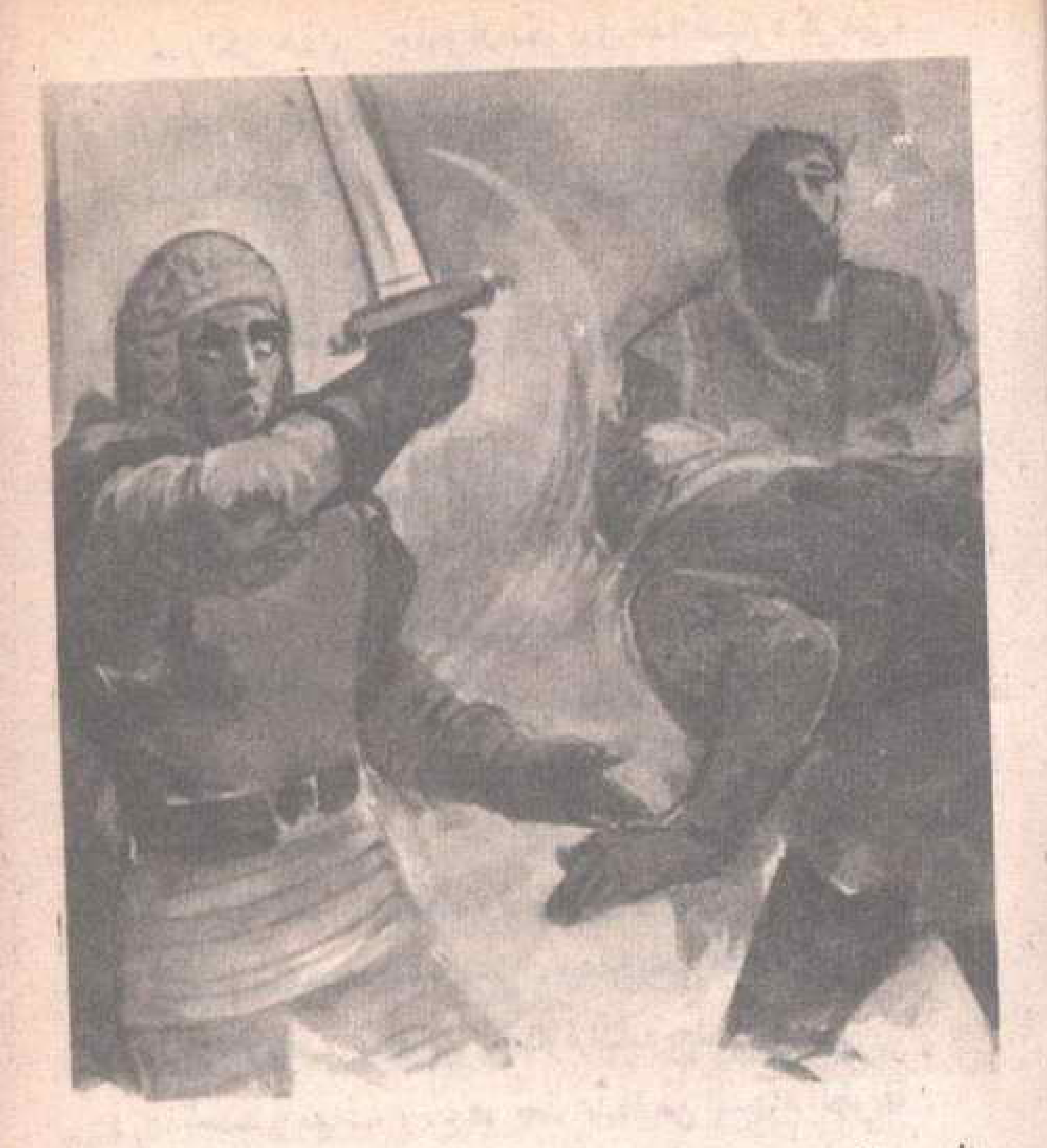
ارتفع سيفه مرة أخرى ، ولكن الوصيف اعترض طريقه هذه المرة ، وهو يقول فى حزم :

ــ ويحك يا (فاسكو) !! إنك أنت الذى يتحدّى أوامر الملك !

أراد (فاسكو) أن يزيح الوصيف عن طريقه فى حدة ، إلا أن عقله قد استيقظ بغتة ، وأدرك أنه حقًا يتحدّى أوامر الملك ، وأنه لن يحتمل مغبة هذا ، إذا ما غضب الملك ، فرمق (فارس) بنظرة نارية ، وأعاد سيفه إلى غمده فى غضب ، وهو يقول :

ــ فليكن أيها الوصيف .. اصطحب العربى إلى الملك .

ثم أردف فى حدة :



انحنى (فارس) فى سرعة مدهشة ، وثنى جسده فى مرونة فائقة ، ثم تراجع فى خفة ، وقفز إلى الخلف ..

ـــ ولكن حذار .. حذار أن تكون فى هذا خسارة كل شىء .
ابتسم الوصيف فى خبث وظفر ، وقال :
ـــ اطمئن يا قائد الحرس .. الملك يتخذ كل أساليب الحيطة والحذر دائمًا .
ثم التفت إلى (فارس) ، واستطرد :
ـــ اتبعنى يا فتى .
اتجه (فارس) فى هدوء إلى جواده ، وانتزع من فوقه تلك الكومة ، وحملها على كتفه ، وتبع الوصيف فى هدوء إلى العرين ..
عرين الملك ..

* * *

تطلّع (قاسم) و(مهاب) إلى حصن (قرطبة) ، من فوق ربوة عالية ، وتمتم الأوّل فى قلق واضح :
ـــ إنهم يشعلون المشاعل ، وهذا يعنى أن الظلام قد ساد تمامًا ، ولم يُرسل (فارس) إشارة البدء بعد .
أجابه (مهاب) ، وهو يُعدّ عددًا من السهام الطويلة :
ـــ لا تجعل هذا يقلقك .. لقد درَّبت (فارس) بنفسى ، وأعلم جيّدًا كيف يتصرَّف ، فى مثل هذه المواقف .

قال (قاسم) ، ولم يزايله قلقه بعد :

ـ ولكنها أوّل مرة يعمل فيها ، فى قلب أرض أعدائه .

أجابه (مهاب) فى اقتضاب :

ـ اطمئن .

حاول أن يتشاغل بإعداد السّهام ، إلا أن القلق لم يلبث أن تسلّل إلى نفسه ، وهو يتصوَّر (فارس) وحيدًا ، فى قلب حصن (قرطبة) ، محاطًا بالقشتاليين وملكهم ، فأزاح السّهام جانبًا ، وقال :

ـ هل تعلم ما الذى صنعناه من (فارس) هذا يا (قاسم) ؟.. لقد صنعنا منه فارسًا لا مثيل له .. فارسًا لا يشقّ له غبار بحق ، فقد حملناه من حصن (قرطبة) رضيعًا ، بعد أن خسر والده ـ رحمه الله ـ معركته الأخيرة ، ولقى مصرعه وهو يحمل سيفه ، ورحلنا به أنا والوزير إلى (غرناطة) ، وهناك بدأ الوزير يرعى الأمير الصغير ، وعلّمه الحكمة والعلم مع النطق ، وجعل منه ثعلبًا واسع الحيلة ، جمّ الذكاء ، شديد الإخلاص لربه ودينه ووطنه ، وفى نفس الوقت كنت أعلّمه أنا فنون الفروسية والقتال ، فاجتمع هذا وذاك ، و.....

قاطعه (قاسم) ، مبتسمًا فى إشفاق :
— هل تحاول إزالة توترك ؟
صمت (مهاب) لحظات ، وهو يتطلَّع إليه ، ثم أشاح بوجهه ، وعاد إلى اهتمامه بالسّهام ، وهو يغمغم :
— مازلت تجيد فهمى تمامًا يا رجل .
اتسعت ابتسامة (قاسم) ، وهو يقول :
— لأنك لم تتغيَّر أبدًا يا قائد الفرسان .
ثم عاد يلتفت إلى الحصن ، مستطردًا :
— ولكن دعنا من هذا ، ولننتظر إشارة (فارس) .
وجلسا ينتظران فى صمت ..

* * *

لفَّ (فرناندو) حرملته على ساعده الأيسر ، وهو يتكئ به على مسند عرشه الضخم ، الذى يتصدَّر بهو الملك ، فى قلب حصن قرطبة ، وأشار إلى حرَّاس البهو العشرة بالتأهّب ، فاستلَّ كل منهم سيفه ، ورفع مجنّه إلى صدره ، مما جعل الملك يبتسم فى زهو وثقة ، ويرتكن بذقنه إلى قبضته اليمنى ، متطلّعًا إلى (فارس) والكومة التى يحملها ، قبل أن يقول فى هدوء :
— والآن أيها العربى ، هأنتذا فى حضرة (فرناندو) ، ملك (قشتالة) ، وأمير (قرطبة) ، وملك (غرناطة) فى القريب العاجل ، فماذا لديك ؟

شدّ (فارس) قامته فى اعتداد ، وقال :

ـ لقد قتلت جاسوسًا عربيًا ، من أجلك يا مولاى ؟

رفع (فرناندو) حاجبيه ، فى حركة بدت واضحة الاصطناع ، وهو يقول :

ـ حقًّا ؟!.. من أجلى أنا ؟

لم ينبس (فارس) ببنت شفة ، فمال (فرناندو) إلى الأمام ، وأضاف :

ـ وكيف علمت أنه جاسوس ، وأنه سيهمّنى أمره ؟.

قال (فارس) فى حزم :

ـ ثيابه أنبأتنى بهذا يا مولاى .

وبحركة سريعة ، حلّ كُومَة الثياب ، وتركها تسقط أرضًا ..

واتجهت كل الأبصار إلى الثياب ..

وشهق (فرناندو) مأخوذًا ..

لقد بدا أمامه ذلك الثوب الأبيض ، ذو الحرملة الخضراء ، والنطاق الأخضر ذو السيف العربى القوى ، والخوذة الفضية ، التى التمعت تحت أضواء المشاعل القوية فى بهو الملك ..

وهتف (فرناندو) بصوت خنقه الانفعال :

ـ من أين أتيت بهذه الثياب ؟

أجابه (فارس) فى اعتداد :

ـ من الجاسوس القتيل يا مولاى ؟

راح وصيف الملك يحدّق فى وجه (فارس) فى حدة ، فى حين هتف الملك ، وهو يلهث من فرط الانفعال :

ـ وأين جثته ؟.. أين جثة هذا الجاسوس ؟

هتف الوصيف فجأة :

ـ هاهى ذى .

قالها وهو يشير إلى ذلك الذى يقف على بعد خمسة أمتار من العرش ..

إلى (فارس) ..

* * *

تسلّلت (غالا) فى حذر ، إلى ذلك الممر القصير ، خلف العرش الملكى تمامًا ، وتوقّفت صامتة ، ترهف سمعها لمعرفة مايدور فى البهو الملكى ..

هكذا اعتادت أن تفعل ، منذ انتقالها للعيش فى حصن (قرطبة) ..

أن تسترق السمع ..

كانت هذه وسيلتها الأولى ؛ لفرض سيطرتها على الحصن ، ولاكتساب رضا سيديها : الملك والملكة ..

وبناء على أوامرهما ..

الملكة تأمرها بالتجسس على الملك ، والعكس بالعكس ..

و(غالا) تطيعهما بلا تردد ، وهى تتساءل فى أعماقها عن روح الدسائس والمؤامرات ، التى تسود كل القصور الملكية الأوروبية ..

وتسأل نفسها : كيف يحيا الملك والملكة كزوجين ، وكلاهما يبغض الآخر ، ويشك فيه إلى هذا الحد ؟..

والجواب لديها أبدًا هو : إنهم ملوك ..

عبارة مبهمة ، ولكنها كانت تعنى لها الكثير ، بعد أن عاشت حياتها كلها فى أروقة قصور (أوروبا) ..

إنها تعلم أن الملك لايتزوَّج إلا ملكة أو أميرة ..

ولاشأن لهذا بالحب ..

بل لاوجود لكلمة الحب ، فى قلوب سادة (أوروبا) ..

قد يهواها الملك ، ويحلو له أن يتسلَّل إلى حجرتها ، دون أن تملك هى اعتراضًا ، ولكن حتى هذا لايعنى أنه يحبها ..

إنه فقط يميل إليها ، كما يميل إلى أية تحفة جميلة فى قصره ..

وحتى هذا لم يكن يعنيها ..

لقد ألفته ..

واستسلمت له ..

وفى هذه المرة ، وهى تسترق السمع إلى مايحدث فى البهو الملكى ، كانت كعادتها لاتهتم بالتفاصيل ، بقدر مايهمها المضمون ، الذى ستنقله إلى الملكة ، ولكنها سمعت الوصيف يهتف :

ـ هاهى ذى .. هاهى ذى الجثة يامولاى .

اختلست النظر إلى البهو ، عبر فرجة صغيرة فى أستار المدخل ، ولكنها لم تر أمامها أية جثث ، بل رأت عربيًا وسيمًا ، بدا لها بالضبط من ذلك الطراز الذى يروق لها ، فهو قوى ، مفتول العضلات ، ممشوق القوام ، وسيم الملامح ، واضح الثقة والاعتدال ، حازم الصوت وهو يقول :

ـ أية جثة أيها الوصيف ؟

سمعت الوصيف يهتف فى انفعال شديد :

ـ انظر إليه جيدًا يامولاى .. إنه يحمل نفس الملامح .. إنه نسخة طبق الأصل من ذلك الأمير العربى القرطبى .. إنه ابنه يامولاى .. ابنه الذى اختفى مع الوزير وقائد الفرسان ، منذ مايقرب من عشرين عامًا .

لم تر (غالا) انعقاد حاجبى الملك ، ولا ذلك التوتر ، الذى شمل أصابعه ، فقبضت فى قوة على مسندى عرشه ، وهو يقول فى حدة :

ـــ هو ؟!.. أهو ذلك الفارس الأبيض ، الذى قتل (رودريك) ؟!..

عند تلك العبارة الأخيرة فقط استيقظت حواس (غالا) كلها ..

إذن فهذا هو العربى الذى قتل (رودريك) ..

حبيبها (رودريك)(*) ..

وفى كراهية وبغض لاحدود لهما ، استلت (غالا) من طيات ثيابها خنجرًا مسمومًا ، واتخذت فى أعماقها قرارًا حازمًا ..

مهما كان ماسيحدث ، فهى لن تتراجع عما اعتزمته ، منذ علمت بمصرع (رودريك) ..

إن أعماقها لاتحمل الآن سوى شعورٍ واحدٍ ..

الانتقام ..

الانتقام الأسود ..

* * *

(*) راجع الرواية الأولى .. (جاسوس قرطبة) ..

على الرغم من دقة الموقف وخطورته ، لم يبد أدنى أثر للخوف على وجه (فارس) أو صوته ، وهو يلوّح بكفه في لامبالاة ، ويقول :

ـ أي ملامح وأي فارس أيها الملك ؟.. هل ستصدق هذيان وصيفك الأخرق هذا ؟

صاح الوصيف غاضبًا :

ـ هل رأيت يا مولاي ؟.. من غير ذلك الفارس الأندلسي الأبيض يجرؤ على مخاطبتك بـ (أيها الملك) ؟

ابتسم (فرناندو) ، وأشار إلى حرّاسه العشرة بالتأهّب ، وهو يقول :

ـ اطمئن يا وصيفي .. إنني أصدّقك ؛ فتشابه الملامح أكبر مما يمكن تجاهله .

ثم أضاف موجّهًا حديثه إلى (فارس) :

ـ لقد وقعت أيها العربي .. حذار أن يخدعك عقلك ، ويدفعك إلى إتيان عمل أخرق ، وأنت أعزل من السلاح ، وعشرة من أقوى رجالي يحيطون بك .

ابتسم (فارس) ، وقال :

ـ هذا يتوقّف على ما يمكن تسميته بالعمل الأخرق يا مولاي ، فهل هو عمل كهذا مثلًا ؟

قالها والتقط كرة صغيرة من حزامه ، وألقاها عبر نافذة البهو الملكى ، فهوت إلى ساحة الحصن ، وتحطمت بدوى شديد ، فتحفز الحرَّاس العشرة للانقضاض عليه ، ولكن الملك أشار إليهم بالانتظار ، وعقد حاجبيه فى صرامة ، وهو يقول :

ــ هل يحلو لك العبث فى بلاطى أيها العربى ؟.. أتعلم عقوبة هذا ؟

رفع (فارس) يديه إلى جانبيه ، وقال فى هدوء :

ــ لا أيها الملك .. إننى أجهلها .

هتف (فرناندو) فى سخط :

ــ إنها الإعدام .

أعاد (فارس) كفيه إلى جواره ، وقال :

ــ أحقًا ؟!

نطقها فى لهجة شديدة الاستهتار ، حتى أن (فرناندو) هبَّ واقفًا عن عرشه فى غضب ، ورفع يده أمام جسده ، وهو يقول فى حدة :

ــ حكمت على نفسك بالإعدام أيها العربى .

ثم أشار إلى جنوده ، مستطردًا فى صرامة :

اقتلوه .

وانقضَّ الجنود على (فارس) ..

* * *

لولو

٦ ــ صراع فى الحصن ..

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى الشيخ ، وهو ينهض لاستقبال ملك (غرناطة) و(الأندلس الصغرى) ، الذى أوقف جواده بين خيام المعسكر الثلاث ، وترجَّل عنه أمام الشيخ تمامًا ، فانحنى الشيخ نصف انحناءه ، وقال :

ــ أى حظ أحاط بنا فى هذه الأيام يامولاى ؟.. لقد كثرت زياراتك لنا ، فى الآونة الأخيرة .

أجابه الملك فى قلق :

ــ أنت تعلم لماذا أيها الوزير .

أومأ الشيخ برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ نعم .. أعلم يامولاى .

جلس الملك على صخرة مجاورة ، متناسيًا مقامه الملكى ، أو متجاهلًا إياه فى حضرة الشيخ ، وسأل فى اهتمام بالغ :

ــ هل أتتك أية أخبار جديدة ؟

هزَّ الشيخ رأسه نفيًا ، وأجاب :

ــ لا .. ليس بعد .

تنهَّد الملك فى توتر ، وقال :

ــ أخشى أن يكونوا قد أوقعوا بهم هناك .

ابتسم الشيخ ، وقال :

ــ لا .. اطمئن .. لم يحدث هذا .

التفت إليه الملك ، يسأله فى اهتمام :

ــ كيف تقولها بكل هذه الثقة ؟

بدت ابتسامة الشيخ غامضة ، وهو يقول :

ــ إن لدينا أساليبنا .

رَان عليهما الصمت لحظات ، تطلَّع فيها الملك إلى الشيخ بنظرات حائرة ، قبل أن يشيح بوجهه ، ويسأله :

ــ أتظنهم سينجحون فى مهمتهم ؟

أشار الشيخ بسبَّابته إلى السماء ، وهو يقول :

ــ الغيب فى علم الله (سبحانه وتعالى) وحده .

رفع الملك عينيه إلى السماء بدوره ، وقال :

ــ نعم .. فى علم الله وحده .

ثم وضع يده على قلبه ، واستطرد فى حرارة :

ــ ساعدهم يا إلٰهى !.. وأعد إلىّ ابنتى (جيلة) .. ساعدهم يا رب العالمين ..

وبدت له النجوم وكأنما اختلفت فى تلك اللحظة ..
وازدادت تألقًا ..

* * *

بدأ التوتر يسرى فى جسدى (مهاب) و(قاسم) ، بعد أن انتهى الأوَّل من إعداد السِّهام ، وكلَّ الثانى من مراقبة الحصن ، فغمغم (قاسم) متوترًا :

ــ لماذا لم يرسل الإشارة حتى الآن ؟.. أخشى أن يكونوا قد ..

قاطعه (مهاب) فى حدة :

ــ لاتقلها ..

وصمت لحظة ، ثم استطرد فى عصبية :

ــ لاشك أن (فارس) سيحسن أداء عمله .. قلت لك إنه ثعلب .

تمتم (قاسم) ، فى صوت يشفّ عن توتره :

ــ ثعلب وسط قطيع من الذئاب ..

هوت العبارة على قلب (مهاب) كخنجر ملتهب ، فخفق قلبه فى عنف ، وارتجفت أطرافه كلها ، وهمّ بقول شىء ما ..

ثم جاءت الإشارة ..

جاءت على هيئة كرة من الزجاج المكسو بالجلد ، اندفعت عبر نافذة البهو الملكى ، وهوت فى منتصف ساحة الحصن ، وانفجرت بدوى شديد ، وصنعت الكثير من الجلبة والارتباك والهرج ، فهبّ (قاسم) معتدلًا ، وهو يقول فى لهفة :

ـــ هاهى ذى الإشارة .

أشار إليه (مهاب) فى انفعال ، هاتفًا :

ـــ أوقد النار .. هيا .. بسرعة .

أسرع (قاسم) يشعل وعاءً من النار ، فى حين شدّ (مهاب) وتر قوسه ، وحمل السّهام ، ووضع رءوسها فى قلب النار ، ثم التقط أحدها ، وقد اشتعل رأسه ، والتقط (قاسم) آخر ، ووضعاهما فى وترى قوسيهما ، وصوّباهما إلى القلعة ، وقال (مهاب) :

ـــ هيا يا رجل .. فلنبدأ على بركة الله .

وأطلقا السهمين ..

* * *

كان حراس الملك العشرة ، مع تحفّزهم وتوترهم ، متأهبين أشد التأهّب لبدء القتال ، الذى بدا لهم فى الواقع مجرّد عملية إعدام سريعة لرجل أعزل ، عندما يهاجمونه كلهم بسيوفهم ..

وكانت العملية تبدو بنفس المضمون تقريبًا ، بالنسبة للملك ..

ثم حدثت المفاجأة ..

سهمان مشتعلان عبرا سماء الحصن ، كشهابين من نار ، ثم اخترقا نافذة البهو الملكى ، وانغرسا وسط البهو تمامًا ..

وتراجع الفرسان العشرة ، والملك ووصيفه فى دهشة ..

وقفز (فارس) ..

فى سرعة مدهشة ، ومرونة ليس لها نظير فى عصره ، وثب (فارس) نحو ثيابه والتقط السيف ذا المقبض الأخضر ..

سيف والده ..

وهنا انتبه الفرسان العشرة للأمر ..

وتوالى انهمار السِّهام المشتعلة داخل البهو الملكى ، وفى كل أرجاء الحصن ، وعبر كل نوافذه ، حتى نافذة جناح الملكة ..

وتعالت صرخات الجميع ..

وساد الهرج والمرج ..

وصرخ الوصيف :

ـــ النار !! النجدة !!

ومع صرخته ، اندفع الفرسان العشرة مرة أخرى نحو (فارس) ، الذى أطلق صيحة زلزلت قلوبهم ، وانقضَّ على سيوفهم بسيفه ، فأطاح بسيف ، وحطَّم مقبض الثانى ، ثم تراجع فى رشاقة ، وقفز نحو العرش الملكى ..

وصرخ الوصيف :

ــ لا .. ليس الملك .

وأطلق الملك شهقة دهشة وفزع ، عندما هبط (فارس) إلى جواره ، ووضع سيفه على عنقه ، وقال فى صرامة :

ــ هل سيواصل فرسانك القتال أيها الملك ؟

لوَّح الملك بكفه ، وهتف :

ــ لا .. لا . ألقوا سيوفكم .

تردَّد الفرسان لحظة ، ثم ألقوا سيوفهم فى حنق ، وهتف الوصيف ملتاعًا :

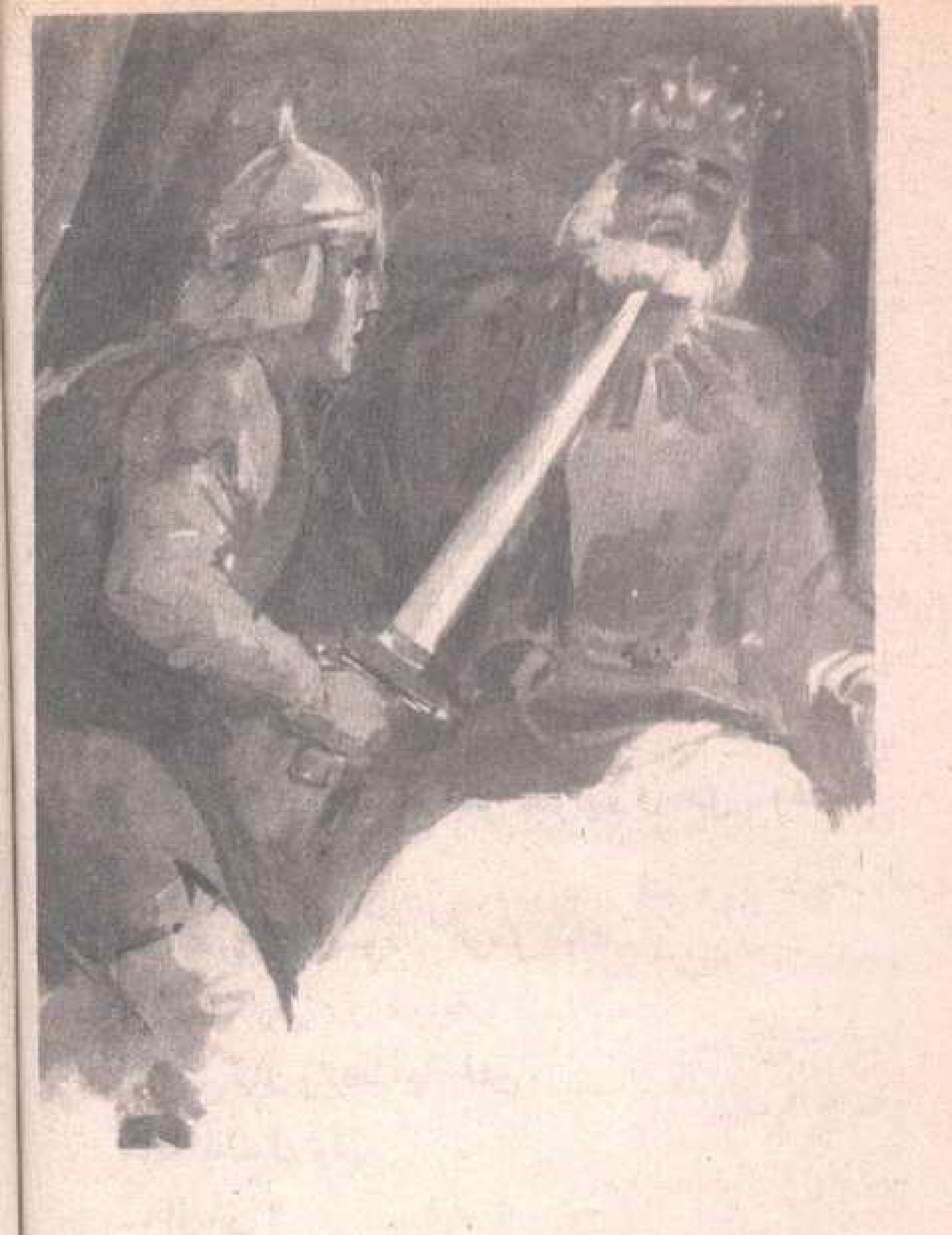
ــ لا تمسّ الملك بسوء .. أتوسَّل إليك .

قال له (فارس) فى صرامة :

ــ احمل ثيابى واتبعنا أيها الحقير .

سأله الملك فى توتر :

ــ إلى أين ؟



وأطلق الملك شهقة دهشة وفزع ، عندما هبط (فارس) إلى جواره ،
ووضع سيفه على عنقه ..

أجابه (فارس) :

ـــ إلى برج الحصن الغربى أيها الملك .. سنبدل حياة بحياة .. حياتك مقابل أميرتنا العربية .

عضَّ الملك نواجذه فى غضب ، وهو يقول :

ـــ وهل تتصوَّر أنك ستخرج بها من هنا حيًّا ؟

أجابه (فارس) فى لهجة أقرب إلى السخرية :

ـــ لا شأن لك بهذا .

قال الملك فى غضب :

ـــ أنت وقح أيها العربى .

دفعه (فارس) أمامه ، وهو يقول :

ـــ فليكن يا ملك القشتاليين ، سنؤجّل مناقشة هذا لما بعد ، أما الآن فسنذهب معًا إلى برج الحصن الغربى ، وأنت أيها الوصيف ، احمل ملابسى معك .

وفجأة ، اندفعت (غالا) تعبر أستار المدخل الخلفى ، وهى ترفع خنجرها ، وتصرخ فى ثورة غضب مفعمة بالكراهية :

ـــ لن تذهب بعيدًا أيها العربى ، ستموت هنا .

وقفزت بخنجرها نحو قلب (فارس) ..

* * *

تفجّرت ثورة غضب هائلة ، فى أعماق (فاسكو دى مال) ، قائد الحرس الملكى ، عندما راحت السّهام المشتعلة الرءوس تهوى على الحصن ، وتشعل النيران فى أرجائه ، وتثير الهرج والمرج فى كل مكان فيه ، فصرخ فى رجاله :

ــ التزموا أيها الجنود .. لاتجعلوا بعض السّهام ترهبكم وتشتتكم ، كقطيع من الأغنام المذعورة .

ولكن صرخاته ضاعت سدى ، وسط الهرج والمرج ، فرفع بصره فى غضب أكثر إلى حيث تنطلق السّهام ، التى بدت كمذنبات ملتهبة ، وضاقت حدقتاه وهو يغمغم لنفسه فى توتر :

ــ إنهما اثنان فحسب ، ولكنهما يجيدان إطلاق النشاب .

ثم اتجه نحو جواده ، وجذب عنانه هاتفًا :

ــ اثبت أيها الجواد .. لاتجعل النيران تخيفك كهذا القطيع الغبى .

وثب على صهوة الجواد ، وراح يجذب عنانه فى قوة ، محاولًا السيطرة على خوف الجواد وذعره ، وحانت منه التفاتة إلى الجواد الأبيض ، ذى السرج الرث ، واللجام المهترئ ، الذى تركه خلفه الشاب العربى ، وأدهشه أن بدا الجواد متماسكًا ، يضرب الأرض بحافريه الأماميين فى قوة ، كما لو أن مرأى النيران لايخيفه أو يرهبه ، فتمتم (فاسكو) :

ـ عجبًا !!.. إما أن هذا الجواد أعمى أخرق ، أو.....
صمت لحظة ، ثم عقد حاجبيه فى شك ، مستطردًا :
ـ أو أنه قد دُرِّبَ على مواجهة النيران .
فكَّر فى الموقف لحظة ، ثم لم يلبث أن ألقاه خلف ظهره ، وهو يرفع عينيه إلى حيث تنطلق السِّهام المشتعلة ، ويقول فى صرامة :
ـ أقسم أن أقطع أيديكما ، عندما أبلغكما أيها المخربين .
وانطلق نحو بوَّابة الحصن ، هاتفًا بحارسيه :
ـ افتحا الأبواب ..
أسرع الحارسان يفتحان البوَّابة ، ويرفعان الحاجز الحديدى أمام قائدهما ، الذى انطلق نحو التلّ المواجه للحصن ، مستطردًا :
ـ الويل لكما ..
ـ واستلّ سيفه المتعطش للدماء ..
دماء العرب ..

* * *

جاءت انقضاضة (غالا) مفاجئة بالنسبة لـ (فارس) حقًّا ، إلا أن (فارس) لم يكن بالذى ترهبه أو تهزمه المفاجأة ..

لقد اعتاد مواجهة المفاجآت منذ نعومة أظفاره ..
منذ تعهّده (مهاب) والوزير برعايتهما ..
ولقد رأى (فارس) خنجر (غالا) ينقضّ على قلبه ..
ورأى (غالا) ..

ولجزء من اللحظة ، لفت جمال (غالا) وفتنتها انتباه (فارس) ، ثم لم يلبث أن طرح هذا جانبًا ، أمام الخنجر الذى تحمله ، فجذب الملك جانبًا ، ووثب معه إلى الخلف ، ورفع سيفه فى خفة ، وأداره فى الهواء ، وضرب خنجر (غالا) بذبابته ضربة شديدة المهارة والخفة ، أطاحت بالخنجر ، دون أن تمس أنامل (غالا) ، التى توقّفت مبهوتة ذاهلة ، تحدّق فى وجه (فارس) ، الذى أعاد سيفه إلى عنق الملك ، وقال فى صرامة :

— ابتعدى أيتها القشتالية ، فليس من شيمة العرب أن يقاتلوا النساء .

صرخت به :

— أيقتلون فرساننا غيلة وغدرًا ؟

وصاح بها غاضبًا :

— ويحك يا امرأة !! .. ليس العرب من يقتلون غدرًا وغيلة .

صرخت :

ـ أنت فعلتها .. أنت قتلت (رودريك) هكذا .

استعاد ذهن (فارس) مشاهد قتاله مع (رودريك) ، جاسوس (قرطبة) ، الذى حاول سلب خريطة الدفاعات الأندلسية ، ثم واجه (غالا) ، وقال فى حزم ، ولهجة واثقة :

ـ لقد لقى (رودريك) مصرعه فى قتال عادل .

قالت فى ثورة :

ـ بل مات بسهم فى عنقه .

عقد حاجبيه ، قائلًا :

ـ لم أطلق أنا ذلك السهم .

هبط على الجميع صمت ثقيل ، و(غالا) تتطلع إلى (فارس) فى بغض هائل ، ثم لم تلبث أن اندفعت تغادر القاعة فى حنق وسخط واضحين ، فقال الملك فى عصبية :

ـ لو أننى فى موضعك لقتلتها بلا رحمة .

أجابه (فارس) فى صرامة :

ـ من حسن حظها أنك لم تكن فى موضعى .

ثم دفعه أمامه ، مستطردًا فى حزم :

ـ والآن هيا ..

وانطلقا نحو برج الحصن الغربى ..
حيث الأميرة العربية ..
الأميرة الأسيرة ..

* * *

التفتت (جميلة) فى انفعال إلى باب حجرة البرج الغربى ، حيث برزت (غالا) ، ووجهها الفاتن يزداد احمرارًا فى حنق ، وسألتها فى لهفة :

ــ إنه والدى .. أليس كذلك ؟.. لقد أرسل جيشًا لإنقاذى .. أعلم هذا ..

لقد شاهدت السّهام المشتعلة تهبط على الحصن .

صاحت بها (غالا) فى حدة :

ــ أخطأت أيتها الأميرة .. إن والدك الأحمق لم يرسل سوى فارس واحد .

بهتت الأميرة لسماع هذا ، وغمغمت فى ارتياع :

ــ فارس واحد ؟!.

انهار الأمل فى نفسها لحظات ، إلا أن كبرياءها لم يلبث أن هزم يأسها ، فرفعت رأسها فى اعتداد ، وأضافت :

ـ فليكن .. إن فارسًا عربيًا واحدًا يكفى .

قالت (غالا) فى مقت :

ـ هكذا ؟!.

ثم رفعت فى وجه الأميرة خنجرًا ماضيًا ، وأضافت فى بغض بلاحدود :

ـ لقد وعدتك أيتها الأميرة .. لن يجدوا رأسك على جسدك .

وانقضت على (جميلة) فى وحشية ..

وحشية المهزوم ..

* * *



٧ — القادة ..

أطلق (قاسم) ضحكة عالية ، متخمة بمُختلف الانفعالات ، وهو يلتقط سهمًا آخر مشتعلًا ، ويدسّ قاعدته فى وتر قوسه ، ويصوبه نحو الحصن ، هاتفًا :

— انظر ماذا فعلنا يا صديقي .. لقد أثرنا الهرج والمرج فى حصن كامل وحدنا .. تمامًا كالأيام الخوالى .

أطلق (مهاب) سهمًا مشتعلًا نحو الحصن ، وهو يقول :

— نعم يا رجل .. تمامًا كالأيام الخوالى ، فأنت لم تفقد مهارتك فى التصويب أبدًا .

أطلق (قاسم) ضحكة أخرى ، وقال :

— بالتأكيد .. ولكننى لن أبلغ أبدًا نصف مهارة (مهاب) ، قائد فرسان الأمير الـ ......

قاطعه صوت محنق يقول :

— كان ينبغى أن أتوقّع هذا .

التفت الاثنان فى حركة حادة إلى مصدر الصوت ، وهبّ (مهاب) واقفًا ، وهو يعقد حاجبيه قائلًا :

ـ (فاسكو دى مال) .. قائد الحرس الملكى .

مطَّ (فاسكو) شفتيه ، وهو يستلّ سيفه ، قائلًا :

ـ إذن فمازلت تذكرنى يا (مهاب) .. ماأطرف هذا !! إننا لم نلتق منذ مايقرب من عشرين عامًا ، عندما كان كلانا أكثر شبابًا وقوة ..

ثم حملت عيناه ابتسامة ساخرة ، وهو يستطرد :

ـ منذ أجبرتك على الفرار إلى (غرناطة) ، بعد مصرع أميرك .

استلّ (مهاب) سيفه بدوره ، وهو يقول :

ـ نعم يا (فاسكو) .. مازلت أذكر هذا ، وأتوق إلى الانتقام .

رفع (فاسكو) سيفه ، وانعقد حاجباه فى شراسة ، وهو يقول :

ـ حسنًا أيها العربى .. سيسعدنى أن أذيقك هزيمة جديدة .

صاح (مهاب) :

ـ فليكن يا (فاسكو) .

والتقى سيفاهما فى مبارزة رهيبة ..

مبارزة حتى الموت ..

* * *

لم تكن الأميرة (جميلة) تتوقَّع انقضاضة (غالا) هذه ، إلا أن هذا لم يمنعها من تفاديها بوثبة جانبية ، وهى تهتف غاضبة :

ـ أتقتلين فتاة عزلاء أيتها القشتالية ؟

صاحت (غالا) ، وهى تلتفت إليها فى غضب :

ـ لن يستعيدك قومك حية أيتها العربية .. لقد أقسمت .

اندفعت مرة أخرى نحو (جميلة) ، التى راوغتها فى صعوبة ، وصاحت :

ـ ويحك أيتها القشتالية !! لن يغفر لك أبى هذا أبدًا .

أطلقت (غالا) ضحكة عصبية شرسة ، وهى تقول :

ـ لن يغفر لى ؟!.. يالسخافتك أيتها العربية !

هوت بخنجرها مرة أخرى على (جميلة) ، ولكن (جميلة) تفادتها ثانية ، وراحت تلهث خوفًا وانفعالًا ، وهى تقول مختنقة :

ـ لو أننى أمسك خنجرًا ، ما كنت بكل هذه الشجاعة .

توقَّفت (غالا) ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة خبيثة غامضة ، لم تفهم (جميلة) مغزاها ، و(غالا) تقول فى سخرية :

ـ لقد سئمت العدو خلفك أيتها العربية .

ثم صرخت بغتة :

ـ (شواهى) .

لحظتها فقط أدركت الأميرة سر ابتسامة (غالا) ، عندما انقضَّت عليها العجوز (شواهى) من الخلف ، وكبلتها بساعديها فى قوة ، وهتفت بـ (غالا) :

ـ لقد أمسكت بها يا سيِّدتى .. هيا .. أطعنيها .. فى القلب مباشرة .

ورفعت (غالا) خنجرها صارخة :

ـ إلى الجحيم أيتها العربية .. إلى الجحيم .

وهوت بخنجرها ..

* * *

فجأة اقتحم (فارس) الحجرة ، وهو يدفع أمامه الملك ..

وفى لحظة قصيرة للغاية ، استوعب الموقف كله ..

وفى اللحظة التالية كان يدفع الملك جانبًا ، ويثب كالفهد نحو (غالا) ، ويجذبها من شعرها فى قسوة ..

وأطلقت (غالا) صرخة ألم وفزع ودهشة ، وهوى خنجرها ، ولكن جذب (فارس) لها جعل الخنجر يطعن الهواء ، قبل أن ينتزع منها (فارس) الخنجر بحركة سريعة قوية ، ثم يدفعها جانبًا ، ويثب مرة أخرى إلى حيث الملك ، ويضع سيفه على عنقه ثانية ، قائلًا فى صرامة :



انقضَّتِ عليها العجوز
(شواهى) من الخلف،
وكبلتها بساعديها فى قوة..

ـــ سأقتل مليكك بلا رحمة ، لو أقدمت على عمل أخرق آخر .

هتف الملك بـ (غالا) فى عصبية :

ـــ كفى يا (غالا) .. ابتعدى .. غادرى البرج كله .. إنه أمر ملكى .

تقافز غضب هائل من عينى (غالا) ، قبل أن تقول فى حدة :

ـــ أمرك يا مولاى .

واندفعت تغادر المكان كعاصفة هوجاء ، وخلفها العجوز (شواهى) ، التى رمقت (فارس) بنظرة مقيتة قبل أن تنصرف ، وهتفت الأميرة فور انصرافهما :

ـــ هل أرسلك أبى ؟

أجابها (فارس) فى هدوء :

ـــ نعم يا أميرتى .. وسنعود إليه معًا بإذن الله .

ثم اعتدل مستطردًا فى حزم :

ـــ والآن أديرى وجهك يا أميرتى .

سألته فى دهشة :

ـــ لماذا ؟

انتزع ثيابه من بين يدى الوصيف ، وهو يقول :

ــ لأننى أحبّ أن نغادر هذا الحصن ، وأنا أرتدى الزّىّ الذى أفخر به .

أدارت الأميرة عينيها ، وقد تورّد وجهها خجلًا ، وراح هو يرتدى زيه الأبيض ، ذا الحرملة الخضراء ، والنطاق الأخضر ..

زى الفارس ..

(فارس الأندلس) ..

* * *

لم يتوقّف (قاسم) عن إطلاق السّهام المشتعلة نحو الحصن ، على الرغم من صليل السيوف خلفه و(مهاب) و(فاسكو) يتبارزان فى إصرار وقوة وعزم ، وسيفاهما يتقارعان فى عنف ، ويتباعدان فى حزم ، و(فاسكو) يقول فى عصبية :

ــ من الواضح أنك لم تتوقف عن التدريبات يا (مهاب) ، فلقد ازدادت قوتك عن ذى قبل .

أجابه (مهاب) ، وهو يضرب سيفه فى قوة :

ــ بل أنت ازددت ضعفًا يا (فاسكو) ، فحياة الدعة التى تحياها تذيب القدرة على الإمساك بالسيف .

راوغ (فاسكو) ضربته ، ودفع سيفه نحوه ، قائلًا :

ـ تتحدَّث كما لو أننى أنا الذى هرب ، فى لقائنا السابق .

تفادى (مهاب) ضربته ، وضرب سيفه جانبًا ، وهو يقول فى حدة :

ـ لاتنسَ أننى لم أهرب من أمامك يا (فاسكو) ، وإنما غادرت الحصن بناءً على أوامر الأمير ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة .

أطلق (فاسكو) ضحكة قصيرة ، وقال :

ـ آه .. أتذكَّر هذا .. لقد هربت مع الوزير ؛ لإنقاذ الرضيع .. أليس كذلك ؟

أجابه (مهاب) ، وهو يتراجع متفاديًا ذبابة سيف (فاسكو) :

ـ بلى يا (فاسكو) .. وهذا الرضيع سيذيقكم أمر الهزائم فى المستقبل .

صرخ (فاسكو) :

ـ هراء ..

ثم قفز نحو (مهاب) ، واستغل فجوة نحو صدره ، أطلق فيها سيفه ، صارخًا :

ـ إنك لن تشهد مستقبلًا أيها العربى .. مستقبلك ينتهى هنا . وطعن ..

* * *

ارتجف الملك غضبًا وانفعالًا ، وهو يهبط أمام (فارس) والأميرة إلى ساحة الحصن ..

واستعاد ذهنه ذكريات قديمة رهيبة ..

ذكريات بعثها فى نفسه مرأى (فارس) ، فى ذلك الزى الأبيض ، والحرملة الخضراء والخوذة الفضية ..

وقفز به عقله عشرين عامًا إلى الوراء ..

ورأى نفسه فى البهو الملكى ، يبارز أميرًا عربيًا ، يرتدى نفس هذا الزى ..

وله نفس الملامح ..

وكانت المبارزة رهيبة ..

وكاد هو يلقى مصرعه ، بسيف ذلك الأمير العربى ..

نفس السيف القوى ، ذى المقبض الأخضر ، والغمد والنطاق الأخضرين ، اللذين يتمنطق بهما (فارس) ..

وتذكَّر كيف انقضّ (فاسكو) على الأمير من الخلف ، وطعنه فى ظهره ..

نعم .. فى ظهره ..

تلاشت كل الذكريات من رأسه ، عندما أصبح داخل الساحة .. أمام جنوده ، الذين سادهم الوجوم ، وهم يحدقون فى مليكهم ، وعربى أبيض الزى يقوده أمامه ، وسيفه يهدد عنقه ، والأميرة العربية إلى جواره ..

ولكز (فارس) عنق الملك بذبابة سيفه ، وهو يقول فى حزم :

ــ مر فرسانك بفتح الأبواب .

رفع الملك كفه ، وقال فى سخط :

ــ افتحوا الأبواب .

وعلى الرغم من حنقهم ، رفع الجنود الباب المعدنى للحصن ، وأنزلوا ذلك الجسر الخشبى ، الذى يفصله عن الأرض ، عبر خندق ضخم يحيط به ، ويعلوه الماء حتى قمته ..

وقال الملك فى مرارة :

ــ لا تتصوَّر أن خروجك من هنا يعنى نجاتك أيها العربى .

أجابه (فارس) فى حزم :

ــ قلت لك لا تشغل نفسك بأمرى أيها الملك .

وبحث بعينيه عن جواده (رفيق) فى سرعة ، ولم يكد بصره يقع عليه ، حتى ابتسم فى حنان وهتف :

ـ إلَيّ يا (رفيق) .

أطلق الجواد العربى صهيلًا يشفّ عن سعادته برؤية فارسه ، وضرب الأرض بحوافره فى جذل ، ثم انطلق نحو (فارس) ، وتوقّف أمامه وراح يمسح عنقه بصدره ، ومعرفته البيضاء الناصعة تتطاير على وجه (فارس) وصدره ، فضحك (فارس) ، وربّت على عنق الجواد ، مغمغمًا :

ـ نعم يا صديقى .. إنه أنا .. لقد التقينا مرة أخرى .

تطلّعت إليه (جميلة) فى دهشة ، وهو يفعل هذا ..

لقد أدهشها أن يمتلك كل الجرأة والجسارة ، وكل الرقة والحنان فى آن واحد ..

كان أغرب شاب التقت به فى حياتها كلها ..

وأكثرهم وسامة ..

ثم ارتفع حاجباها فى دهشة ، وشاركها (فرناندو) وكل فرسانه دهشتها ، عندما انتزع (فارس) السرج الرث عن جواده ، ومزّق عنانه البالى ، فهتف (فرناندو) :

ـ هل ستمتطى جوادك هكذا ؟.. دون سرج أو لجام ؟

أجابه (فارس) ، وهو يربّت على عنق الجواد فى اعتزاز :

ـ هكذا أفعل طيلة عمرى .

ثم التفت إلى الأميرة ، وحملها بين ذراعيه فى قوة ، كما لو كانت طفلة صغيرة ، وهو يقول :

ـ هيا .. النساء أوَّلا .

ووضعها على ظهر الجواد ..

وكان هذا هو الخطأ الذى ارتكبه ..

إن حمل الأميرة ، ووضعها على الجواد ، كان يستلزم استخدام ذراعيه فى آن واحد ..

ومن الخطأ أن يفعل هذا ، وهو يقف فى قلب أعدائه ..

ولقد انتهز (فرناندو) هذه الفرصة النادرة ، فانطلق يعدو فجأة ، صائحًا فى رجاله :

ـ أمسكوا به يا رجال .. اقتلوه .. اقتلوهما معًا .

وفجأة وجد (فارس) نفسه وحده ، فى مواجهة جيش جرار ..

وفى مواجهة الموت ..

* * *

٨ ــ فارس وجيش ..

انعقد حاجبا (قاسم) ، وهو يتابع الموقف فى ساحة الحصن ، فى إهتمام شديد ، منذ ظهر فيها الملك ، وخلفه (فارس) والأميرة ..

وجذب الموقف انتباهه فى شدة ، حتى أنه قد نسى تلك المبارزة المحتدمة خلفه ، ولم يعد يسمع قرقعة السيوف ، ولاصوت (فاسكو) ، وهو يلهث قائلًا :

ــ اشتدّ ساعدك كثيرًا يا (مهاب) ، ولكن صحتك لم تشتدّ بالقدر نفسه .

أجابه (مهاب) ، وهو ينحنى جانبًا ، متفاديًا ضربة من سيفه :

ــ هل ترى ذلك حقًا ؟

قالها ودار حول نفسه فى حركة أنيقة رشيقة ، ثم أطلق سيفه فى حركة موجية سريعة ، وانتزع سيف (فاسكو) من يده ، وأطاح به بعيدًا ، ثم اعتدل فى ظفر ، وأعاد سيفه إلى جواره ، وهو يقول لـ (فاسكو) ، الذى احتقن وجهه فى سخط :

ـ ما رأيك يا قائد الحرس الملكى ؟

هتف (فاسكو) فى مرارة :

ـ اقتلنى يا (مهاب) .. اقتلنى كما تقتضى القواعد .

هزَّ (مهاب) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ قواعدكم أنتم لا قواعدنا نحن أيها القشتالى ، فمبادئنا تقول : « العفو عند المقدرة » ، وأنا أعفو عنك يا (فاسكو) .. اذهب .

ازداد احتقان وجه (فاسكو) ، وهتف :

ـ لا يا (مهاب) .. لن تعفوَ عنى ، كما يعفو السيِّد عن عبده .

ثم انقضّ عليه فى شراسة ، هاتفًا :

ـ ستقتلنى يا (مهاب) .. ستقتلنى على الرغم منك .

ولكن (مهاب) تفادى انقضاضته فى مرونة ، وأدار سيفه فى سرعة ، ثم هوى بمقبضه على مؤخرة عنق (فاسكو) ، قائلًا :

ـ معذرة يا (فاسكو) .

انتفض جسد (فاسكو) كله ، عندما تلقّى الضربة ، ثم سقط قائد الحرس الملكى القشتالى عند قدمى (مهاب) ، الذى استطرد فى حزم :

ـ لن أمنحك نعمة الموت أبدًا .. ستحيا بإذن الله ، حاملًا عار هزيمتك .

التفت إليه (قاسم) فى هذه اللحظة ، وهتف فى انفعال :

ـ لقد ابتعد الملك عدوًا ، وترك (فارس) والأميرة فى مواجهة جيشه كله ، وسط ساحة الحصن .

التفت إليه (مهاب) فى انزعاج ، ثم قفز نحوه ، واختطف قوسه ونشابه ، وهتف :

ـ هذا يعنى أن لحظتنا القصوى قد حانت يا رجل ..

وأطلق كل منهما سهمه ..

* * *

هوى قلب الأميرة (جميلة) بين قدميها ، عندما رأت الملك (فرناندو الخامس) يجرى مبتعدًا ، وجيشه كله يندفع نحوها ونحو (فارس) ، واحتبست صرخة فى حلقها ، عجزت عن الانطلاق من حلقها ، فى حين صرخ (فارس) :

ـ انطلق يا (رفيق) .

قالها وهو يتشبَّث بعرفة جواده العربى الأصيل ، وخيِّل للجميع أن الجواد قد انطلق بالفعل ، قبل أن يثب (فارس) فوق ظهره ، وعلى الرغم من هذا .. وعلى الرغم من أنه لم يكن

يستقرّ على سرج ، أو يمسك بعنان ، استقرّ (فارس) على ظهر جواده تمامًا ، أمام الأميرة (جميلة) ، وهتف بها وهو يمسك معرفة الجواد بيسراه ، ويقبض على مقبض سيفه بيمناه :

ــ تشبّثى جيّدًا .

أحاطت الأميرة وسطه بذراعيها فى قوة ، وتشبّثت به فى إصرار ..

وانطلق الجواد ..

وانطلق معه سيف (فارس) ..

كان الاثنان أكثر من رائعين ..

الفارس والجواد ..

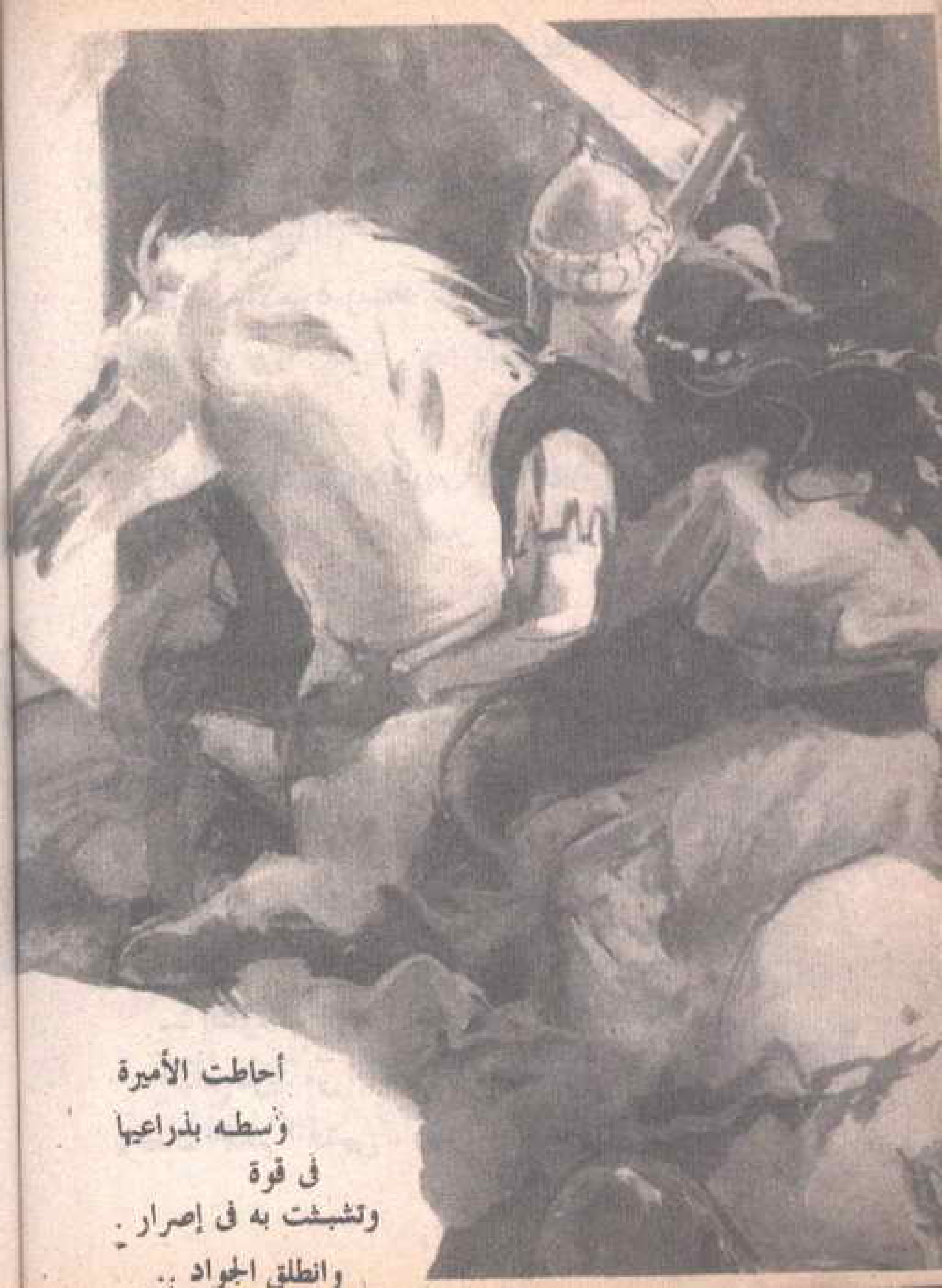
الجواد كان يشقّ الصفوف فى شجاعة ، غير مبال بالسيوف المشهورة فى وجهه ، ولا بصراخ الجنود ، ويحاور ويناور فى براعة منقطعة النظير ، ورشاقة تثير الحسد ..

والفارس يقود الجواد ، ويضرب بسيفه يمنة ويَسْرَةً ، فى قوة مدهشة ، ومرونة مذهلة ، وجرأة بلا حدود ..

وصرخ الملك :

ــ اقتلوه .. ارفعوا الأبواب .. أغلقوا الحصن ..

اندفع مزيد من الجنود نحو (فارس) ، وبدأ حارسا البوّابة يرفعان الجسر الخشبى ، وينزلان الباب الحديدى ..



أحاطت الأميرة
وسطه بذراعيها
فى قوة
وتشبثت به فى إصرار ..
وانطلق الجواد ..

ثم هوت سهام (قاسم) و(مهاب) على الرءوس ..
وتعالت صرخات الجنود ..
وهتف (فارس) فى الأميرة :
ـ اخفضى رأسك .
خفضت رأسها على نحو غريزى ، فور سماعها عبارته ، وزادت من تشبّثها به ، فى حين انحنى هو أيضًا ، وهتف :
ـ اعبر يا (رفيق) .. اعبر ..
وكالسهم ، عبر (رفيق) براكبيه أسفل الباب الحديدى ، ثم انطلق يعدو كالريح فوق الجسر ، الذى يرتفع تدريجيًا عن الأرض ..
وفى اللحظة المناسبة جذب (فارس) معرفة (رفيق) ، وهتف فى حماس :
ـ الآن يا (رفيق) ..
واتسعت عينا الأميرة فى رعب ، وأطلقت شهقة رهيبة ، عندما وثب (رفيق) عبر الخندق ، وبدا وكأنه جوادٌ أسطورى مجنَّح ، يسبح فى الهواء ، على نحو ألجم كل فرسان (فرناندو) ، وفتح عيونهم عن آخرها انبهارًا ، قبل أن يهبط على قوائمه ، على الجانب الآخر من الخندق ، ثم ينطلق براكبيه مبتعدًا ..

وصرخ الملك :

ـ لاتتركوه يهرب .. انطلقوا خلفه ..

قفز الجنود على ظهور جيادهم ، وانطلقوا بها خلف (فارس) ، وانهالت عليهم سِهَامُ (قاسم) و(مهاب) كالمطر ، وأسقطت منهم العشرات ، ولكن الآخرين واصلوا المطاردة ، والملك يصرخ كالمجنون :

ـ الحقوا به .. لاتتركوه يهرب .. شرف (قشتالة) كله بين أيديكم .

وبدأت مطاردة رهيبة ..

مطاردة موت ..

* * *

هتف (قاسم) في سعادة ، عندما رأى (فارس) يعدو على متن جواده ، وخلفه الأميرة ، خارج الحصن :

ـ لقد انتصر فارسك يا (مهاب) .. لقد أنقذ الأميرة ، وغادر الحصن معها .

هبَّ (مهاب) من مكانه ، هاتفًا :

ـ ليس بعد .

قال (قاسم) :

ـــ ولكنه ربح بالفعل .. ألم تره وقد ..

قاطعه (مهاب) ، وهو يسرع الخُطا مبتعدًا :

ـــ مازال الطريق من هنا إلى (غرناطة) طويلًا كالدهر ، وجنود (فرناندو) و(إيزابيلا) يصطفّون فيه كجيش جرّار .

ابتسم (قاسم) ، وهو يلحق به ، قائلًا :

ـــ اطمئن يا صديقى .. لن يكون ذلك الأمر عسيرًا .

سأله (مهاب) ، وهو يقفز على صهوة جواده :

ـــ كيف يا صديقى ؟

أطلق (قاسم) ضحكة طويلة ، وقال :

ـــ أنسيت أننى ملك (قرطبة) غير المتوَّج يا رجل ؟.. لقد اتخذت ما يلزم لعرقلة القشتاليين ، حتى يبلغ فارسك حدود (غرناطة) .

توقَّف (مهاب) ، والتفت إليه يسأله فى لهفة :

ـــ حقًا يا (قاسم) ؟!

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى اتسعت عيناه فى ذعر ، وهتف :

ـــ ابتعد يا (قاسم) .

ولكن صرخته أتت متأخرة ..

لقد استعاد (فاسكو) وعيه ..

ونهض بكل روح الغدر فى أعماقه ..
وطعن (قاسم) فى ظهره ..
فى موضع القلب تمامًا ..

* * *

تشبثت (جميلة) بـ (فارس) فى شدة ، وهتفت والخوف يملأ كل خلية من خلايا روحها :
ـ إنهم يطاردوننا .. سيلحقون بنا حتمًا .
قال فى حزم :
ـ لا .. ليس ونحن على ظهر (رفيق) .
هتفت مذعورة :
ـ إنه مجرّد جواد .
أجابها فى صرامة :
ـ بل هو أفضل جواد فى (الأندلس) كلها .
التفتت تتطلّع إلى الجنود ، الذين يطاردونهما فى إصرار ، وخيّل إليها أنهم يقتربون أكثر وأكثر ، فقالت وهى ترتجف :
ـ أتعشّم أن يثبت هذا .
ثم أضافت فى رعب :
ـ فى هذه الدنيا .

لكز (فارس) جواده ، وهو يقول :

ـ هل تسمع يا (رفيق) ؟.. لقد أصبحت مسألة كرامة يا صديقى .

انطلق من خلفه نفير حربى ، تردَّد صداه فى المنطقة كلها ، فهتفت (جميلة) :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟

أجابها فى صوت لم يخل من رنة قلق :

ـ سنعلم بعد قليل .

لم يكد يتمّ عبارته حتى تناهى إلى مسامعهما وقع حوافر جياد تقترب منهما ، من الناحية الأخرى ، فأضاف فى توتر :

ـ لقد علمت .

ومن أمامهما برز فريق القشتاليين الثانى ..

لقد وقع (فارس) ..

وقع بين المطرقة والسندان ..

* * *

٩ ـ فارس الأندلس ..

جحظت عينا (قاسم) ، وتفجَّرت الدماء من حلقه ، ثم ترنَّح ، وسقط على وجهه ، فقفز (مهاب) عن صهوة جواده هاتفًا :

ـ (قاسم) !!

تراجع (فاسكو) وخنجره يقطر دمًا فى قبضته ، وتجاهله (مهاب) تمامًا ، وهو ينحنى على (قاسم) ، ويديره إليه هاتفًا :

ـ ماذا أصابك ياصديقى ؟.. أجب .

حاول (قاسم) أن يبتسم فى صعوبة ، ولكنه عجز عن هذا ، وهو يتمتم :

ـ إنها النهاية الطبيعية لأمثالنا ياصديقى .. طعنة فى الظهر من قشتالى خائن .. لقد طعننى فى القلب مباشرةً .

قال (مهاب) فى مرارة :

ـ ربَّما ليس فى القلب يا رجل .. إنك ما زالت تتحدَّث ، وربَّما لو..

قاطعه (قاسم) بابتسامة متهالكة ، وهو يقول :

ـــ لا يا رجل .. ألم تقرأ ما كتبه (ابن النفيس)(*) ؟.. إن للقلب أربع حجرات ، اثنتان منها لا يوقفهما الطعن على الفور .

تدفقت من حلقه بقعة دم أخرى ، سعل بعدها ، وأكمل :

ـــ كل ما يؤلمنى هو أن عودتك قد أذكت روح الحماس فى قلبى ، وجعلتنى أتمنى لو ألقى مصرعى فى قتال ، بدلًا من الموت غيلة على هذا النحو ، و......

بتر عبارته بغتة ، وأطلق بدلًا منها شهقة قوية ، ثم استكان جسده ، وخمدت أنفاسه كلّها ..

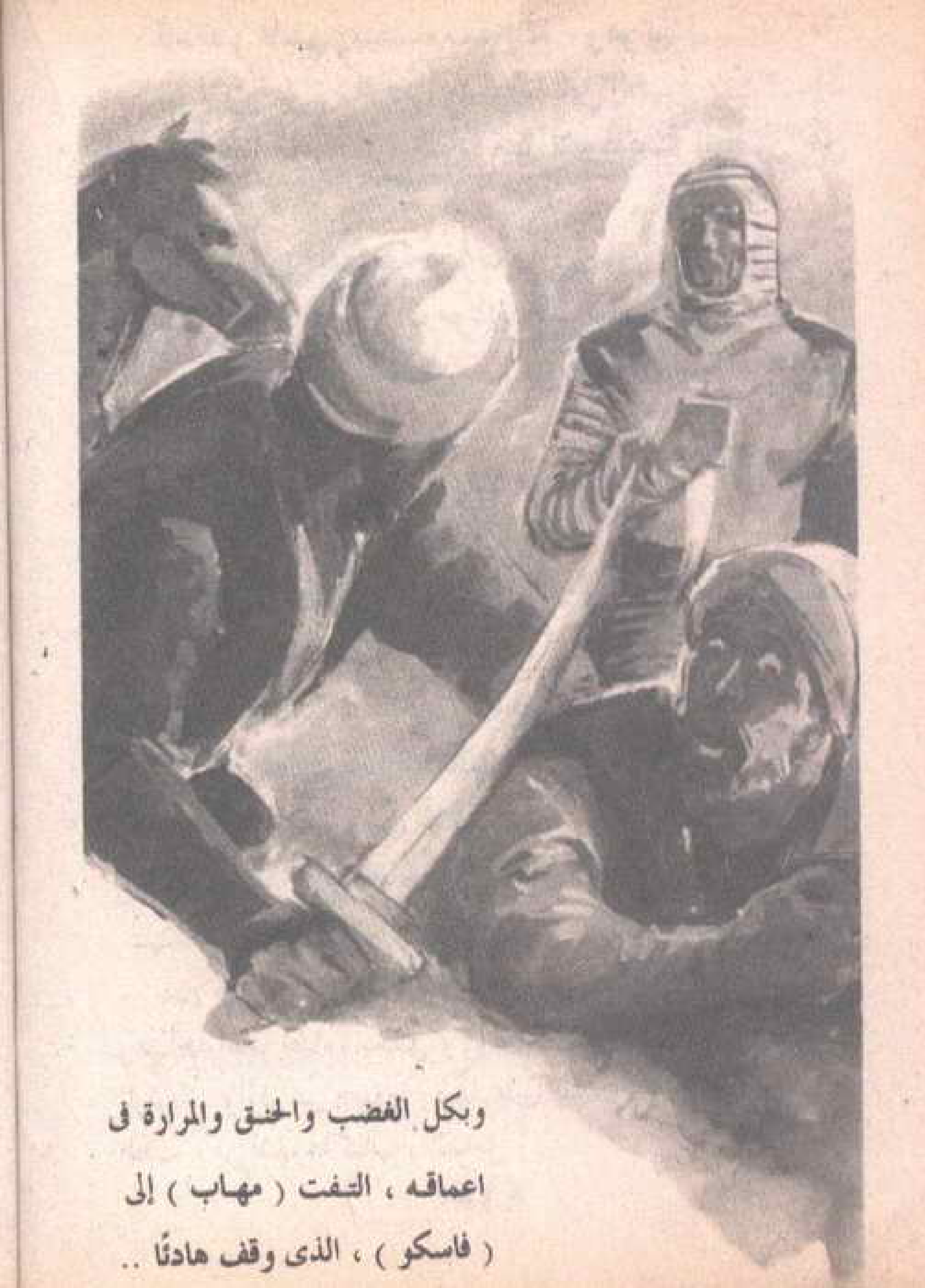
وبكل الغضب والحنق والمرارة فى أعماقه ، التفت (مهاب) إلى (فاسكو) ، الذى وقف هادئًا ، يراقب هذا ، وعيناه تلتمعان ببريق عجيب ، وقال :

ـــ لماذا فعلت هذا أيها القشتالى ؟

أجابه (فاسكو) فى غلظة :

ـــ كنت أخلى الساحة أيها العربى .

(*) على بن أبى الحزم القرشى ابن النفيس : توفى عام ١٢٨٨م ، وهو أحد أشهر أطباء (دمشق) ، وصاحب سبق كشف الدورة الدموية الرئوية ، وأوّل من وصفها وصفًا علميًا سليمًا ، وله كتب عديدة فى الطب ، من أشهرها كتاب (الشامل) .



وبكل الغضب والحنق والمرارة فى
اعماقه ، التفت (مهاب) إلى
(فاسكو) ، الذى وقف هادئًا ..

.. ثم انحنى يلتقط سيفه ، ورفعه أمام وجهه ، مستطردًا فى بغض :

ــ أخليها لقتال أخير بيننا .. قتال لن يحسمه إلا الموت .

بادله (مهاب) نظرة الكراهية والمقت ، ثم استلّ سيفه ، وقال :

ــ فليكن أيها القشتالى .. ستكون المبارزة بيننا هذه المرة من أجل دماء (قاسم) .

وشهر سيفه مستطردًا فى غضب :

ــ ستكون مبارزة حتى الموت .

والتقى سيفاهما ..

* * *

كان الموقف دقيقًا بحق ، بالنسبة لـ (فارس) والأميرة ، والقشتاليون يحاصرونهما من الأمام والخلف ، فهتفت الأميرة فى يأس :

ــ لقد وقعنا .

ولكن فجأة سمع (فارس) صوتًا عميقًا حاسمًا يهتف به :

ــ إلى اليمين .

ودون تفكير ، جذب معرفة (رفيق) إلى اليمين ..

وانحرف الجواد مستجيبًا لفارسه ، فى لمح البصر ..

ما من جواد عادى يمكنه هذا ..

فقط جواد عربى أصيل كـ (رفيق) ..

جواد فارس ..

انحرف الجواد براكبيه فى طريق جانبى ضيق ، وهتف (فارس) ، عندما وقع بصره على الفارس الأسود ، الذى يمتطى جوادًا أكثر سوادًا ، فى نهاية الطريق الضيق :

ـــ يارب الكون .. إنه هو .

هتفت الأميرة ، وهى تزداد تشبثًا به :

ـــ من هو ؟

هتف بكل سعادته :

ـــ (فهد) .

أدار (فهد) عنق جواده فى هذه اللحظة ، وأشار لـ (فارس) أن يتبعه ..

وانطلق (فارس) والأميرة خلف (فهد) ..

وراح الجوادان ينحنيان وينحرفان عبر شبكة شديدة التعقيد من الطرق ، حتى هتفت (جميلة) :

ـــ لم أعد أسمع وقع حوافر جياد القشتاليين خلفنا .

أجابها (فارس) مبتهجًا :

ـ لاريب أنهم قد فقدوا أثرنا .. أنا نفسى أعجز عن العودة ، عبر نفس المنحنيات المعقَّدة ، التى اجتزناها الآن .

استمر يتتبَّع (فهد) لبعض الوقت فى صمت ، حتى توقَّف الزنجى ، وأشار إليه بالوقوف ، فاتجه إليه (فارس) بجواده ، وهتف :

ـ أنت رائع ياصديقى .. لقد أنقذتنا .

انحنى (فهد) أمامه تلك الانحناءة القصيرة ، ثم ناوله رقعة صغيرة ، التقطها (فارس) من يده ، وأسرع يفضّها ، ثم قال فى اهتمام :

ـ إنها خريطة .

أومأ (فهد) برأسه إيجابًا ، ثم راح يشير بيده فى سرعة ، فسألت (جميلة) فى حيرة :

ـ ماذا يقول ؟

أجابها (فارس) :

ـ يقول إننا لو اتبعنا هذه الخريطة ، فسنجد أمامنا طريقًا مفتوحًا ، يجعلنا نبلغ (غرناطة) عند الفجر ، دون أن نلتقى بجندى قشتالى واحد .

سألته في دهشة :

ـ كيف يعلم هذا ؟

ابتسم وأجاب :

ـ (فهد) يعرف كل شيء .

ثم ربت على كتف (فهد) في حرارة ، وقال :

ـ سنتبع الخريطة يا صديقي .. اطمئن .

انحنى (فهد) أمامه مرة أخرى ، ثم جذب عنان جواده ، ولكزه بكعبيه في رفق ، وانطلق به مبتعدًا ، حتى غاب وسط الظلام ، فهتفت (جميلة) في دهشة :

ـ أهو أبكم ؟

أجابها (فارس) ، وهو يجذب معرفة (رفيق) ؛ لينطلق به بدوره :

ـ أبكم وأصم .

سألته في حيرة :

ـ من طلب منا أن نتجه إلى اليمين إذن ؟

صمت لحظات مفكرًا في هذه النقطة ، التي غابت عن ذهنه لحظتها ، ثم أجاب :

ـ هو على الأرجح .

هتفت فى دهشة بالغة :

ــ ألم تقل إنه أبكم أصم ؟

انطلق بالجواد ، وسط ظلام (قرطبة) ، وهو يقول :

ــ أميرتى العزيزة .. افعلى مثلى .

قالت فى دهشة وحيرة :

ــ أفعل ماذا ؟

ابتسم وهو يجيبها :

ــ لاتجعلى شيئًا يدهشك .

وزاد من سرعة (رفيق) ..

* * *

اقتحمت الملكة (إيزابيلا) جناح الملك (فرناندو) فى غضب ، وهى تهتف :

ــ أى عار هذا يا ملك الملوك ؟.. كيف ينفذ عربى إلى حصننا ، وينتزع منه أسيرتنا أمام أعيننا جميعًا ، ثم يختفى فى قلب (قرطبة) ؟

ارتشف (فرناندو) رشفة من كأس الخمر بين يديه ، وقال فى حدة :

ــ لكل جواد كبوة .

صاحت :

ـ إنها ليست كبوة ، بل نكسة .. مصيبة .. لقد ..

صرخ بها بغتة :

ـ اصمتى .

حدّقت فى وجهه ذاهلة ، فأضاف فى عصبية بالغة :

ـ أتظنين أن هذا يروق لى ؟.. إنه أمر يحرق أعصابى ويمزّق مرارتى أيضًا .. ولكن ماذا أفعل ؟. كل ما أملكه هو أن أمنع حدوث هذا فى المستقبل ، وأن أضاعف من إجراءات الأمن ، و.....

قاطعته محتدّة :

ـ وأن تقلّل قليلًا من فضولك ، الذى جعلك تستدعى ذلك العربى إلى بهوك الملكى ، فلو لم تفعل ما حدث كل هذا .

رمقها بنظرة نارية ، وهو يقول :

ـ أهكذا أخبرتك جاسوستك (غالا) ؟

هتفت به :

ـ (غالا) هذه هى الوحيدة التى أتت فعلًا إيجابيًا ، وسط كل هذه الأحداث ، وكانت ستقتل الأميرة العربية ، لـولا أوامرك .

قال فى حدة :

ـ لو سقط رأس الأميرة ، لسقط رأسى خلفه .. أهذا ما كنت تتمنينه ؟

قالت فى سخط :

ـ ربّما .

واستدارت تغادر المكان فى غضب ، ولكنها توقَّفت عند بابه ، والتفتت إلى الملك ، تقول :

ـ لتعلم أن (غالا) قد أقسمت على الانتقام من ذلك الفارس العربى ، حتى ولو ذهبت خلفه إلى (غرناطة) .

قال فى لهجة تجمع ما بين السخرية والمرارة :

ـ كلنا نأمل هذا .

رفعت رأسها فى كبرياء ، وغادرت جناحه فى حدة ، فكرَّر فى مرارة :

ـ نعم .. كلنا نأمل هذا .

وحطَّم كأسه على الأرض فى عنف ..

* * *

كانت الشمس تشرق فى الأفق ، والأميرة (جميلة) تشعر بتهالك شديد ، بعد عدو الجواد بها وبـ (فارس) طيلة الليل ، حتى أنها لم تستوعب أوَّل عبارة يوجهها إليها (فارس) ، منذ افترقا عن (فهد) ، فسألته :

ــ ماذا تقول ؟

قال فى حماس :

ــ سألتك هل الهواء هنا مختلف ؟

سألته فى دهشة :

ــ وهل ينبغى أن يكون كذلك ؟

أطلق ضحكة ارتياح ، وهتف :

ــ بالطبع يا أميرتى .. إنك تتنسمين الآن هواءً عربيًا .

هتفت فى فرح أطار كل الانهاك من جسدها :

ــ حقًا ؟!

صاح فى سعادة :

ــ نعم يا أميرتى .. لقد عبرنا حدود (قرطبة) منذ قليل .. إننا الآن فى (غرناطة) .. فى مملكة (الأندلس الصغرى) .

انهمرت دموع الفرح من عينيها ، وهى تهتف :

ــ يا إلٰهى !.. لقد عدت إلى موطنى .. لقد نجوت .. يا إلٰهى !

شعر بدموعها وكأنها تنهمر فى قلبه ، فأوقف جواده ، والتفت إليها يقول فى حنان وإشفاق :

ــ أتبكين أيتها الأميرة ؟

أشاحت بوجهها عنه ، وكأنما تأبى عليها كرامتها أن يرى دموعها ، وأجابت :

ـ لم أتصوَّر أبدًا أننى سأعود إلى أبى سالمة .

ابتسم مغمغمًا :

ـ لا يوجد مستحيل يا أميرتى .

لأوَّل مرة ينتبه إلى جمالها الفتَّان ..

إلى حسنها العربى ..

إلى رقتها وأنوثتها ..

ولأوَّل مرة فى عمره ، شعر بقلبه يخفق ..

وامتزجت خفقاته بخفقاتها ..

هى أيضًا وجدت فيه الفارس ..

فارس أحلامها ..

وتورَّدت وجنتاها خجلًا ، بمجرَّد أن هذا قد لاح بخاطرها ..

ولاذت بالصمت ..

كلاهما لاذ بالصمت ..

وانطوى حبهما فى قلبيهما ..

وفجأة هتفت الأميرة :

ـ انظر هناك .

أدار عينيه إلى حيث تشير ، ورأى عند قرص الشمس فارسًا يعدو على ظهر جواد ، متجهًا إليهما ، ولكنه لم يستطع تمييز ملامح الفارس جيدًا ، من هذه المسافة ، فغمغم :

ـ ربما هو (فهد) .. لقد تبعنا ؛ لحمايتنا كالمعتاد .

راحت ملامح الفارس تتضح تدريجيًّا ، فهتف فى سعادة :

ـ إنه (مهاب) ..

لحق بهما (مهاب) بعد قليل ، وابتسم فى تهالك ، وهو يقول :

ـ أرى أنك قد نجحت فى مهمتك يا فتى .

هتف به (فارس) :

ـ ولكنك مصاب فى ذراعك .. ماذا حدث ؟

هزَّ (مهاب) كتفيه وقال فى هدوء :

ـ إنه جرح بسيط ، فلقد تبارزت مع (فاسكو) ، قائد الحرس الملكى .

سأله فى اهتمام :

ـ وكيف انتهت المبارزة ؟

صمت (مهاب) لحظات ، وهو يلتفت متطلعًا إلى الخلف ، حيث (قرطبة) ، ثم قال فى هدوء وحسم :

ـ سيكون على (فرناندو) أن يختار قائدًا جديدًا للحرس .
أومأ (فارس) برأسه متفهمًا ، فى حين قالت (جميلة) فى ضيق :
ـ أيتحتم أن تكون حياتكم كلها على هذا النحو ؟
غمغم (مهاب) :
ـ إنه قدرنا .
التفتت إلى (فارس) ، وسألته فى خفوت :
ـ أهذا صحيح ؟
تطلَّع إليها فى ود واضح ، وهو يجيب :
ـ بالتأكيد .. فقدرى أن ألتقى بك ..
توردت وجنتاها فى خجل ، وخفضت عينيها فى حياء ، ولكن ابتسامتها شفَّت عن ذلك الشعور ، الذى يخفق به قلبها ، فابتسم (مهاب) فى حنان ، وهو ينقل بصره بين وجهيهما ، ثم ربَّت على كتف (فارس) ، وقال :
ـ هيا بنا ، فلا ريب أنهم ينتظرون عودة الأميرة على أحرّ من الجمر .
ولكن (فارس) بدا وكأنه لم يسمعه ، فسأله فى قلق :
ـ ماذا هناك ؟

اضطرّ أن يكرّر سؤاله مرتين ، قبل أن يلتفت إليه (فارس) ، قائلًا :

ــ معذرة ، كان هناك مايجذب انتباهى فى شدة .

سأله فى دهشة :

ــ ماهو ؟

التفت مشيرًا إلى قرص الشمس ، الذى بدأ يصعد من خلف التلال فى الأفق ، قائلًا :

ــ هاهوذا .

رفع (مهاب) عينيه إلى حيث يشير (فارس) ، ورأى ما رآه ..

من بعيد ، كان يبدو (فهد) على جواده ، فوق التل ، وقد بدا قرص الشمس وكأنما يحيط بهما ، تاركًا منهما ظلًّا أسود فحسب ..

ثم جذب (فهد) عنان جواده ، واختفى به خلف التل ، فغمغم (فارس) :

ــ كالمعتاد .

وجذب معرفة جواده بدوره ، مستطردًا :

ــ هيا بنا .

وانطلق الموكب الصغير على متن جوادين ، عائدًا إلى آخر أرض للعرب فى جنة (الأندلس) ..

وأعلن التاريخ نجاح مهمة جديدة للفارس ..

فارس كل العصور ..

(فارس الأندلس) .

* * *





٢

فارس الأندلس

من البطـــولات العربيـــة
فى أحرج فترة للعرب فى أسبانيا

الأميرة الأسيرة

• فى إطار الحرب القائمة ، اختطف القشتاليون الأميرة (جميلة) ، ابنة ملك (غرناطة) ، وأسروهـا فى (قرطبة) ، وكان على (فارس) أن يسعى لاستعادتها ، فى قلب أرض العدو ، ومن أقوى حصونهم فى (قرطبة) ، فهل ينجح (فارس الأندلس) ؟..
وهل يستعيد الأميرة .. (الأميرة الأسيرة) ؟..

الرواية القادمة : السيف الذهبى



المؤلف

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمن فى ...
وما يعادله با...
فى سائر الد...